دار الكتب الوطنية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

صالح سويسي القيرواني : حياته ومختارات من كتاباته

دراسة واختيار : أحمد بن عبدالله
تاريخ النشر : 2009
الناشر : وزارة الثقافة والشباب والترفيه، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 202 ص. ؛ 21 سم.
ردمك (ISBN): 9973-910-26-5
السلسلة : ذاكرة وإبداع، ج 15
الموضوع : أعمال وتراجم صالح سويسي القيرواني
تصنيف ديوي العشري : 928
المفاتيح : أعمال وتراجم، صالح سويسي القيرواني ، الصحافة الأدبية، المقال الأدبي، المقامات، أدب الرحلات، الأدب القصصي التونسي، شعر، الأدب التونسي المعاصر، الحداثة، النهضة الأدبية والفكرية في تونس، الحركة الاصلاحية ، أدباء تونسيون، المكتبة الوطنية،الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.

A-8- 192359

دار الكتب الوطنية التونسية © كافة الحقوق محفوظة

وزارة الثقافة والشباب والترفيه

صالح سويسي القيرواني

حياته ومختارات من كتاباته

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

دراسة واختيار
أحمد بن عبد الله

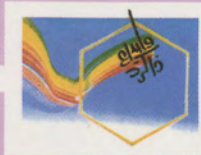

سلسلة « ذاكرة وإبداع»

المركز الوطني للإتصال الثقافي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

دار الكتب الوطنية
التوثيق والإعلام
رقم: 2 805
2003 ديسمبر

وزارة الثقافة والشباب والتربية
المركز الوطني للاتصال الثقافي

سلسلة «ذاكرة وإبداع» [15]

A-8-192359

صالح السويسي القيرواني

حياته ومختارات من كتاباته

3 02335

دراسة واختيار
أحمد بن عبد الله

تونس

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

« ذاكرة وإبداع »

* سلسلة فصلية

* الناشر : وزارة الثقافة و الشباب و الترفيه - تونس

- المركز الوطني للإتصال الثقافي-

* إدارة : أ. عبد الوهاب الدخلي

* الكتاب 15 - صيف 2003

* العنوان : "صالح سويسي القيرواني"

- حياته و مختارات من كتاباته -

* تجميع و تقديم : أحمد بن عبد الله

* الطبعة الأولى : 2000 نسخة

* الإنجاز الطباعي : مطبعة المغرب للنشر - دوبزفيل - تونس

* جميع الحقوق محفوظة للناشر

* ر.د.م.ك : ISBN : 9973-910-26-5

الإخراج الفني و المتابعة : فتحي اللواتي

للتذكير و التواصل

"لا يزال أدبنا التونسي الحديث الذي أنتجته قرائح كتّابنا وشعرائنا مهملا منسيا –على ما فيه من خصال وما له من ميزات تستحقّ أن نوليها شطرا من عنايتنا ونساعدها على الظهور والكمال حتّى تتم لنا ولغيرنا صورة حية من أدبنا الحاضر. فهو لا يزال–سواء ما نشر منه أو ما لم ينشر بعد–يترقّب أن يلتفت إليه ملتفت وأن يبعثه من مرقده باعث".

مجلة المباحث جويلية (1944)

" و هو ما سعينا إليه، راجين أن يجد الأخصائيون و النقاد و عموم القراء، في هذه السلسلة، ما يعمق معارفهم و يثري منابع الاستفادة لديهم".

د. عبد الباقي الهرماسي
وزير الثقافة و الشباب و الترفيه
(من تقديم الكتاب الأول للسلسلة)

حياته
1941 - 1871

مصادر ترجمة حياته

اكتشفت صالح سويسي القيرواني من خلال كتاب "الحركة الأدبية والفكرية في تونس" للشيخ محمد الفاضل بن عاشور (1) ، وقد خصه نفس المؤلف بترجمة لحياته في كتاب "أركان النهضة الأدبية بتونس" (2) . أما ثاني المصادر أهمية في نظري فهو "ترجمة المؤلف بقلمه" التي صدّرت بها الدار التونسية للنشر كتاب "الهيفاء وسراج الليل" (وهي الرواية التي ألفها صالح سويسي سنة 1906) ،ويقول الناشر إن هذه الترجمة اكتشفت في كراس مخطوط للمؤلف مع بقية من الرّواية لم يسبق نشرها و مقامات ونصوص أخرى نُشر بعضها في نفس الكتاب الذي صدر سنة 1978. وتلك الترجمة وثيقة هامة ضمّنها المؤلف صورة لمختلف مراحل حياته وإنتاجه الأدبي إلى زمن كتابتها. وقد وضعها لتكون مقدمة لمصنّف جمع فيه مقاماته التي استوحاها من أطوار حياته الشخصية.

ومن المصادر الأساسية في هذا المجال ما ذكره محمد الحليوي في كتابه "في الأدب التونسي" (3). فمحمد الحليوي عاشر صالح سويسي وتأثّر به وكان يكنّ له تقديرا خاصا كما نلاحظ ذلك في بعض مراسلاته مع أبي القاسم الشابي. وكذلك الترجمة التي خصه بها زين العابدين السنوسي في

كتاب "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" (4) . أما غير ذلك مما وجدناه من تراجم فيعتمد على بعض تلك المصادر أو كلّها مثل ما كتبه محمد صالح الجابري ونجوى الكافي ومصطفى الحبيب البحري ومحمد محفوظ...

تاريخ ميلاده

يقول صالح سويسي في ترجمة حياته أنه ولد سنة 1871. إلا أن هنالك من يرى أنه من مواليد عام 1874. بينما يرجّح شقّ ثالث أنه من مواليد عام 1878. ولمّا كان أدب صالح سويسي وثيق الارتباط بحياته وبأحداث عصره الفكرية والسياسية والاجتماعية، فإنه من المهمّ أن نحاول ضبط تاريخ ميلاده. ولمّا كنّا نعلم أنه توفّي يوم 18 ديسمبر 1941 عن سنّ سبعين سنة، رأينا توظيف ما هو متّفق عليه لمحاولة الفصل في ما هو محلّ اختلاف.

قدّمت نجوى الكافي كتاب "ديوان صالح سويسي القيرواني" (د.ت.ن 1974) (5) بمقالة عنوانها "صالح سويسي الأديب والمصلح الاجتماعي" جاء فيها أنه ولد سنة 1874. ثمّ أضافت بعد ذلك مباشرة أنه "عاش أكثر من سبعين سنة". فما يمكن استنتاجه من ذلك هو أنه توفّي بعد سنة 1944 وهذا لا يتفق مع تاريخ وفاته، وهو معروف.

وفي "ديوان الشاذلي عطاء الله" (6) ورد قصيد يرثي فيه هذا الشاعر القيرواني صديقه صالح سويسي (ص.461)، ذُيّل هامشه بتعريف مقتضب بهذا الأخير ذُكر فيه أنّه ولد سنة

1884. ومقارنة مع ما ترجّحه بقية التراجم نعتقد أنّ ما أثبت في تلك الملاحظة خطأ مطبعيّ، وأنّ المقصود هو سنة 1874.

أمّا مصطفى الحبيب البحري فقد نشر بمجلة "الفكر" (السنة 25 /العدد 3– ديسمبر 1979) مقالا بعنوان "صالح سويسي القيرواني" (7) جاء فيه أنّ هذا الأديب ولد سنة 1878. وقد أخذ عنه صاحب كتاب "مشاهير التونسيين" إذ يشير إلى تلك المقالة في ما اعتمده من مراجع لترجمة حياة صالح سويسي.

ويذكر محمد محفوظ في كتاب "تراجم المؤلفين التونسيين" (8) أن صالح سويسي ولد سنة 1878 ثمّ يضيف: "ولد بالقيروان ونشأ بتونس حيث ارتحلت إليها أسرته وعلى رأسها والده في سنة 1296هـ/1876م واستظهر فيها القرآن بالكُتّاب..." (ص.91). ويمكن مقارنة ذلك بما ذكره صالح سويسي في ترجمته بقلمه إذ يقول: "ولدت بالقيروان عام 1291هـ/1871م وكان أبي وسطا في اليسار فسنح لأفكاره لأمور اقتضاها الحال أن يسافر إلى حاضرة تونس فارتحلنا إليها عام 1296هـ/1876م فأدخلني والدي إلى مكتب القرآن..." وبمقارنة النصّين نلاحظ أن محمد محفوظ يجعل انتقال عائلة صالح سويسي إلى تونس قبل مولده بحوالي سنتين، بينما يؤكد المترجم له أنّ ذلك الحدث كان وسنّه تناهز الخمس سنوات وهي السنّ التي يؤمّ فيها الأطفال عادة الكُتّاب، ممّا يتناسب مع تسلسل بقية ما يذكر من أحداث أثّرت في تكوينه الفكري ومسيرته الأدبية.

لكلّ ذلك فإننا نرجّح ما ذكره صالح سويسي عن تاريخ ميلاده (أي سنة 1871) وسنعتمده أساسا في ترجمة حياته.

انتسابه إلى الشّرف الحسيني بالقيروان

يفتتح صالح سويسي ترجمة حياته بذكر نسبه الشريف فيقول: " إنّي عبد الله، صالح بن عمر سويسي الشّريف القيرواني، يتّصل نسبي بسيدي علي العواني، جدّ الوالدة من أسباط الحسين بن علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه."(9).

ونلاحظ تعلّقه بنسبه الشّريف واعتداده به من خلال المقامات التي استوحاها من سيرته الذّاتية حيث يعتبر نفسه سليل "آل البيت". فهو يقول في "المقامة السّوسية"، معلّقا على ما أصابه من محن "...وقد علمت أنّ آل البيت النبوي من قديم الزّمان ممحو نين". كما يقول في "المقامة التوزرية" :"...فإنّي لمّا توجّهت إلى تونس حسبما علمت، وقفت أمام أمير الأمراء وبالحقّ نطقت، وقابلني بما يليق بآل البيت..."(10) .

و يُسلِمُنَا هذا إلى ملاحظتين، تتعلق الأولى بأهميّة هذه المسألة في عصر صالح سويسي، حيث صدرت في الموضوع مقالات عدّة بالمجلة الزيتونية. أمّا الملاحظة الثانية، فهي أنّ تعلّق صالح سويسي بنسبه الشّريف يجعله شديد الإيمان بأنّه محمّل برسالة إصلاح المجتمع ودعوته إلى العمل بهدي السّلف الصالح.

نشأته، تعلّمه

ولد صالح سويسي بالقيروان، عام 1291هـ/1871م، وكان أبوه وسطا في اليسار، "فسنح لأفكاره لأمور اقتضاها الحال أن يسافر إلى حاضرة تونس..." فارتحلت إليها العائلة عام 1876م. لم يخبرنا صالح سويسي عمّا كان يشتغل به والده، ولا عن أسباب تلك الهجرة، وكلّ ما ذكره هو أنّ ذلك الوالد "كانت له مكانة عظمى في قلوب أهالي الحاضرة".

كان صالح سويسي إذن طفلا صغيرا عند تأسيس المدرسة الصادقية (1874)...وانتقلت عائلته للإقامة بمدينة تونس في نفس السنة التي صدر فيها الأمر العليّ الخاص بإصلاح التعليم الزيتوني (1876)...إلاّ أنه لن يستفيد من تلك الإصلاحات، ولأسباب بقيت مجهولة، اقتصر تعليمه على "مكتب القرآن" (أي الكُتّاب). ويحدّثنا في سيرته الذاتية عن تلك الفترة فيقول: "..فأوّل من قرأت عليه كتاب الله الفاضل الخيّر سيدي الشيخ جمال الدّين الخياري بكتّاب وليّ الله سيدي أحمد بن عروس، ثمّ انتقلت إلى الأجلّ الكامل أستاذي محمد بلّوم القليبي، وباشرت القراءة عليه بكتّابه الكائن بسوق البلاط، وختمت عليه القرآن العظيم" (9). ولم أعثر على المصدر الذي اعتمده بعض القائلين بأنه درس بجامع الزيتونة.

أقام صالح سويسي مع عائلته في تونس إلى سنة 1886م "...في عيشة لا يشوبها كدر..."، ثمّ عاد إلى القيروان

صحبة والدته، وبقي أبوه بتونس "...لقضاء مآرب له هناك، فمكث نحو السنة ثم عزم على الرحيل فمات فجأة ليلة سفره، وذلك في شهر رمضان عام 1307هـ/1887م".(9) فأصبح أديبنا يتيم الأب وهو في سنّ السادسة عشرة، وسيكون لذلك الحدث عميق الأثر في نفسه، فجعل من الدفاع عن اليتيم قضيّة التزم بها طيلة حياته، وخصّها بأثر مستقلّ عنوانه "فجائع اليتامى والبائسين" (تونس، 1911). ويقول الشاذلي عطاء الله في هذا المعنى راثيا صالح سويسي (6):

وَمَنْ لِلْفَقِيرِ إِذَا مَا شَكَا ... وَأَرَّقَهُ بَطْنُهُ الجَائِعُ
وَمَنْ لِلْيَتِيمِ إِذَا مَا بَكَى ... عَلَى يُتْمِهِ طَرْفُهُ الدَّامِعُ
تَلِينُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُ القُسَاةِ ... فَيَرْدَعُهُمْ وَعْظُكَ اللاَّذِعُ
وَمَنْ لِلْمَوَاعِظِ تُرْغِي بِهَا ... وَيَقْذِفُهَا نَظْمُكَ القَاذِعِ

ثقافته

يقول الشيخ الفاضل بن عاشور أنّ هذا الأديب "الذي نعدّه نحن –وقد عدّه النّاس قبلنا– ركنا من أركان النهضة الأدبية، وعلما من أعلام الإصلاح الديني والفكري وموجّها من موجّهي الشعر إلى أسمى مراتبه في تصوير الحياة القومية والفكرية، هو رجل لا يعد من المتعلّمين لأنّه لم يزاول دراسة منظّمة، ولا انتسب إلى معهد علمي". فقد أمّن صالح سويسي لنفسه تكوينا عصاميا، فثقّف عقله وصقل مواهبه و"استطاع أن يبرز من خوالد الأفكار والآداب ما كان منارا للعلماء ومادة لتغذية النّتاج الأدبي الرّفيع..." (11)

لم يكن لصالح سويسي أن يبلغ تلك المرتبة التي أشاد بها أكثر من شاهد من أبناء عصره لولا وجود عدّة عوامل، أهمّها استعداده النّفسي وتعطّشه للعلم والمعرفة، ثمّ البيئة التي شبّ فيها والظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها البلاد التونسية والعالم الإسلامي عامة.

أ-1العوامل الخارجية

نشأ صالح سويسي في ظروف كانت فيها البلاد تتأرجح بين الأمل والألم. فقد تميّزت المرحلة سياسيا بتردّي الأوضاع الداخلية والصراع من أجل السلطة، والاضطرابات والتّقلبات التي لم تُجْدِ محاولات الإصلاح لتخطّيها، فأفضت إلى أولى الكارثتين وهي استقالة الوزير المصلح خير الدين باشا وهجرته إلى استنبول (1878م)، ثمّ الكارثة العظمى، وهي انتصاب الحماية الفرنسية في البلاد التونسية سنة 1881م. أمّا الأمل، فقد جاء من خلال بوادر النّهضة التي تزعّمها خير الدين باشا، وكانت من أخصب الفترات التي رسّخت في الأذهان "اعتبار الكتابة والنشر مظهرا حضاريا لا يقلّ شأنا وتأثيرا في حياة الأفراد والشعوب عن المنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية"(12) . ويقول أحمد بن أبي الضياف في ذلك: " وفي غرّة محرّم فاتح سنة 1277، سبع وسبعين (الجمعة 20 جويلية 1860م)، جعل الباي في الحاضرة مطبعة لصحف الأخبار والوقائع والكتب، وسميت صحيفتها (الرّائد التونسي)." ثم يضيف معلّقا على ذلك الحدث : "...ولا أقول إن المطابع من التّحسين، بل هي في

درجة الحاجي. ولا يخفى أنها من فوائد العمران لأنّها تفيد آداب النفس وتسهل وجود الكتب النّافعة المفيدة التي كانت مقصورة على الأغنياء(...) وبالمطابع تقدّم من تقدّم من الأمم، حتى صارت في مدن الحضارة كالأمور الضرورية، وربّما كانت سببا في إطفاء نار فتنة، لأنّ الملوك تنظر بمرآتها إلى مطامح أنظار العامة، فتعالج سقيمها بالأدوية النّافعة، إلى غير ذلك من فوائدها التي لا تحصى.ˮ (13)

وعندما تولى خير الدين باشا مقاليد الوزارة الكبرى أُولَى تلك المطبعة وجريدة ˮالرّائدˮ التي تصدر عنها عناية خاصة وˮبعث فيها النّشاط. وأسند نظرها إلى الشيخ محمد بيرم الخامس. وأسند إدارة الجريدة إلى فرنسي مستعرب، نشأ في بيروت وتخرّج من كلّية اليسوعيين، هو منصور كرليتي. ووسّع نطاق النّشر في المطبعة بالإكثار من نشر الكتب الأدبية والتاريخية. وجلب للقيام على الناحية العملية من المطبعة وتولّي تصحيح الكتب وجريدة ˮالرّائدˮ، العلاّمة المصري الشيخ حمزة فتح الله الاسكندراني، وبهذين الأستاذين اتّصلت جهود النشر في تونس بمركزي النّشر الهامين في العالم العربي، بيروت ومصر. فكثرت المراسلات والمبادلات، واتّسع باب جلب الكتب المطبوعة في الشرق وترويجها بتونس.ˮ (14)

لقد رأينا التوسع في ذكر هذا الحدث لما له من أثر عظيم في تكوين نخبة فكرية تونسية عامة وفي تكوين صالح سويسي الثقافي والفكري بصفة خاصة، إذ وفّرت له الطباعة

والصحافة مادة غزيرة ومتنوّعة ينهل منها ويطلّع من خلالها على مجريات الأحداث في المشرق والمغرب، في مجالات السياسة والفكر والأدب. فتكوّنت له بذلك ثقافة واسعة، ملتصقة بواقع العصر وقضاياه.

ب-العوامل النفسية

كان الشاب صالح سويسي متعطّشا للتعلم والمعرفة، وهو يخبرنا في "المقامة السوسية" أنّه حاول أن يحصل على دروس خاصة لتمتين تكوينه، لكن سرعان ما تخلى عنه أستاذه بإيعاز من "بعض الأفراد". ولمّا أخفق في محاولة نيل المعرفة بالطرق التقليدية، لجأ إلى المطالعة فأنشأ مدرسته لنفسه وبنفسه، وكان فيها وحده المعلّم والمتعلّم. ويفسّر لنا في ترجمته الدّوافع التي وجّهته نحو المطالعة، فيقول: "...فأقمت ببلدي القيروان بين أعداء وحسّاد، فتجرّعت من فتنهم وأذاهم مرائر الأنكاد، وكنت خلال هذه المدة، وعظائم تلك الشدة، مثابرا على مطالعة الكتب الأدبية، والمجلاّت الشرّقية، والدّواوين الشّعرية، لكي تزاح عنّي سحائب الهموم، وتنكشف عن قلبي تلك الغيوم..." (9)

ونلاحظ من هذا الحديث عاطفة قوية، حزينة، وألما دفينا من موقف المجتمع الذي يذكّر الشاب بيتمه وعدمه، ويصوّر له بؤسه وشقاءه. ولعلّ ذلك يفسر لنا ما كان في نفسه من عميق الحزن وكامن الألم، فجرّهما في صورة أدب ساخط، ناقم على المجتمع المنحرف، ثائر على الأوضاع السّائدة.

ويخبرنا محمد الحليوي عن تأثير المطالعة في ثقافة صالح سويسي وتكوينه الفكري، فيقول: "...إنّ الشيخ صالحا كان من أكبر القرّاء، فيندر أن يسمع بكتاب جديد أو مجلة ولا يعمل جهده للحصول عليها ويطالعها. وكان يكتب إلى أحبابه الكثيرين من عمال وموظفين طالبا إمداده بما عندهم من الصحف والمجلات، فيمدونه بها عن طيب خاطر. وكان يقيّد ما يروقه من هاته المطالعات في دفاتر أسماها "سفينة نوح" قد بلغت بضعة أجزاء. ولا أبالغ إن قلت إنّ جل ما أخرجته المطابع بمصر والشرق منذ أربعين سنة قد قرأه الشيخ وأفاد منه." (15)

وقد تكونت بذلك لصالح سويسي حافظة قوية، زاخرة بكثير من الحكايات والأشعار التي فيها إيقاظ للهمم وشدّ العزائم، "...فكان يوردها في حديثه بلا حساب، ويكسوها من حيوية نفسه وفصاحة لسانه ما يقرّبها إلى القلوب ويشوق النّفس لسماعها، فتعمل في مستمعيها ما لا تعمله الخطب الطويلة والمواعظ الأنيقة."

تكوينه الفكري

عاصر صالح سويسي الحركة الإصلاحية بتونس في طوريها الأساسيين، أولهما المرحلة التي تزعمها خير الدين باشا، وقد أشرنا إلى بعض ما حققته في مجالات التعليم والتنظيم الإداري والسياسي، وما أنجزه فكريا وثقافيا بتشجيع الطبع والنشر. إلاّ أن التناقض البارز بين طبيعة الحكم المطلق وتصرّف الباي وأهل المطامع من حاشيته، وبين

أهداف الحركة الإصلاحية التي كانت تعتمد على فئة قليلة من المستنيرين، قد أدى إلى تصدّع العلاقة الهشة بين السلطة ورجال الإصلاح. فاستقال خير الدين باشا وهجر البلاد يائسا، وتبعه جلّ من عاضدوه في مشروعه الإصلاحي، وتفرّقت عصابتهم. فمنهم من التحق باستانبول مع خير الدين، ومنهم من توجّه إلى بلاد المشرق مثل محمد بيرم الخامس، أو إلى أوروبا كما فعل الجنرال محمد حسين . وبتفرّق الجماعة الإصلاحية عمّ الفساد، وتهيأت الظروف الملائمة لتحقيق مطامع الدول الأوروبية واحتلال البلاد، فكان أن فرضت فرنسا نظام الحماية على تونس في ماي 1881.

إلا أن عددا قليلا ممن عاضدوا خير الدين باشا حاولوا الصمود ومواصلة العمل على النهج الذي خطّه. ومن هؤلاء محمد السنوسي الذي ساهم في تنظيم إدارة الأوقاف وفي تحرير جريدة "الرّائد التونسي"، إلى جانب العمل بالمطبعة الرّسمية حيث كان أهمّ معين لمديرها محمد بيرم الخامس. فعمل جهده بعد تفرّق الجماعة الإصلاحية للحفاظ على هذه المكاسب ممّا عرّضه لتآمر أصحاب المطامع، فتألّبوا عليه وأخذوا يكيدون له عند الباي. وبلغت مرارة الخيبة عنده شأوها لمّا كان الاحتلال الفرنسي، فتخلى عن وظائفه وهجر البلاد سنة 1882م، فأقام في إيطاليا مدة من الزمن في ضيافة الجنرال محمد حسين الذي كان وزيرا مستشارا في وزارة خير الدين باشا، ثم تحوّل إلى استانبول، فإلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، ومنها خرج إلى الشّام. فاتّصل خلال هذه الرحلة بأصدقائه القدماء من رجال الحركة الإصلاحية في

مختلف المواطن التي استقروا بها، كما اتصل بعدد من أعلام علماء المسلمين المستنيرين.

وخلال هذه الرحلة تعرّف محمد السنوسي عن كثب على مبادئ وأهداف الحركة الإصلاحية التي قامت على يد الأزهريين، وخاصة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وانضم إلى جمعيتهم السرية "العروة الوثقى". ولمّا عاد إلى تونس سنة 1883 التحق بوظيفه بإدارة الأوقاف، وأخذ يجمع حوله نخبة من المستنيرين والمثقفين، فجدّد الحركة الإصلاحية التونسية، وأصبح داعيا لتعاضدها مع الحركة الإصلاحية المشرقية. (16)

وقد حققت تلك الحركة نجاحا فكريا جعل الشيخ محمد عبده يُقْبِلُ على زيارة تونس سنة 1884، فكانت مناسبة لاطلاع النخبة التونسية مباشرة على آرائه، خاصة في المسائل التي تهم إعادة هيبة العالم الإسلامي ومكانته. ومعلوم أن الحركة الإصلاحية التونسية، وإن تزامنت مع الموجة الإصلاحية السلفية التي عمّت العالم الإسلامي، تميّزت عن الحركة المشرقية بالتوجه الذي خطّه خير الدين باشا في كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الذي ألّفه سنة 1867. وقد ضمّنه تحليلا ثاقبا لصميم المشكلات الدولية، وتحديدا متبصرا لتداعي الدولة العثمانية وملحقات إمبراطوريتها. ولعلّ من أهم ما جاء فيه الدعوة إلى "...تجاوز الحواجز الضيّقة...واقتباس المعارف والتنظيمات الأوروبية المؤسَّسة على العدل والحرية اللذين هما أصلان في الشريعة الإسلامية..." (17)

ولعلّ تجاوب محمد عبده مع تلك الأفكار، واتفاق رأيه مع رأي جماعة الإصلاح في تونس هما اللذان جعلا بعضهم يذهب إلى أن الشيخ عبده "...استنبط مذهبه في تونس العاصمة أثناء إقامته الأولى بها (6 ديسمبر 1884 إلى 4 جانفي 1885)، بعد المحادثات التي أجراها مع الزيتونيين المتفتّحين، فلقد كانت مبادئ التجديد تتجاوب تجاوبا عميقا مع ميول النخبة في تونس العاصمة...وكان رجال الإصلاح المتأثرون بالمبادئ الموروثة عن خير الدين وقابادو، يرون أن لا مناص من الأخذ عن الثقافة الغربية..." (18)

وكان من أثر تلك الزيارة دعم حماس النخبة الإصلاحية وتوسّعها بانضمام خرّيجي المدرسة الصادقية إلى النخبة الزيتونية المستنيرين، وظلّوا على صلة متينة بدعوة محمد عبده للنهضة بالإسلام. ولتبليغ صوت دعوتهم، أسّس جماعة الإصلاح صحيفة أسبوعية باسم "الحاضرة"، صدر العدد الأول منها يوم 2 أوت 1888، وهي أول صحيفة أسبوعية غير حكومية بتونس.

عاصر صالح سويسي تلك الحركة، وساعده على إدراك أبعادها اتّصاله المتين بأحد أعلامها البارزين، وهو الشيخ محمد النخلي القيرواني، إذ كان حريصا على حضور مجالسه والأخذ عنه كلّما عاد الشيخ إلى القيروان في فترات العطل. فكان أكبر منبع استقى منه أفكاره التي صاغها في أدبه. ويقول الشيخ الفاضل بن عاشور متحدثا عن تلك الصلة: "...ويعتبر ...صالح سويسي أول كاتب تفانى في سبيل

الإصلاح الاجتماعي، ووقف عليه نثره وشعره، ولم يكن قد زاول تعليما منظما، ولكنّه سما إلى هذه المنزلة بفطرته الطيبة ومواهبه الأدبية العجيبة وتأثّره بنوادي أنصار الإصلاح بمدينة القيروان، واتصاله بالشيخ محمد النخلي، وقد حضر دروسه العامة التي كان يلقيها مدة العطلة الدراسية بالقيروان.˝ (19)

وكما كانت هناك صلة بين الحركة الإصلاحية في تونس وحركة محمد عبده في المشرق، نشأت صلة روحية بين صالح سويسي وزعماء النهضة في بلاد المشرق، عن طريق ما كان يطالعه في الصحف والمجلات من أخبارهم وأفكارهم. ويشير محمد الحليوي إلى تلك الصلة حيث يقول: ˝...وكان الشيخ صالح رحمه الله من أبرز هؤلاء الأفراد القليلين الذين أولعوا بمطالعة ما يكتبه أعلام النهضة الإسلامية في ذلك الوقت من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وتلامذتهما وهم سعد زغلول، والمنفلوطي، وشكيب أرسلان، ومحمد رشيد رضا، والشيخ علي يوسف صاحب جريدة ˝المؤيد˝ التي كانت أفسح ميدان لنشر آراء هؤلاء الكتّاب والمفكّرين. وفي مدرسة ˝المؤيّد˝ تخرّج الشيخ صالح سويسي، وبدعوة الأفغاني ومحمد عبده وتلامذتهما تأثّر، وبهدي أفكارهم اهتدى، وعن وحيهم صدر، وعلى غرارهم ضرب، ومن أسلوبهم اقتبس.˝ (20)

ولعلّ أهم ما أثّر في نفس صالح سويسي هو ما لاحظه من تناقض بين تلك الحركة الفكرية التي هي من نصيب أقلية

من المستنيرين، وما يقابلها من جهل العامة، والفارق بين الوجود الزاهر للقيروان في القديم، وبين الوضع المؤلم الذي تعيشه في حاضرها، وبين تقدّم الغرب وتأخّر بلاد المسلمين...

لقد أدرك ما كان ينخر جسم الأمّة الإسلامية من أمراض، واقتنع بأن خلاص الشعب لا يتمّ إلا متى تهيأ لإيقاظه وإصلاحه مفكرون ينيرون سبيله ويرشدونه إلى مسالك النهضة. وتمكّن لامتزاجه بمختلف الطبقات الشعبية من التعرف على مشاكل المجتمع وإحصاء العوائق التي كانت تصدّه عن التقدم والرقيّ، كما مكنه ظرفه وأدبه من الاندماج في نوادي الإصلاح والاتصال برجال النهضة، فأخذ عنهم، والتهب حماسه من حماستهم، فانطلق قلمه لمعالجة تلك الأوضاع، وانبرى لسانه يستحثّ الهمم لتجاوزها ومعالجة ما اعترى المجتمع من فساد العقيدة والسلوك.

بداية إنتاجه الأدبي ومحنته

تشبّع صالح سويسي بأفكار الإصلاح والمصلحين، وأدرك أبعادها، فتاقت نفسه لإبداء الرّأي في بعض مجالاتها، وخاصة الجانب الاجتماعي الذي خبره وأهلّته تجربته في الحياة وما حصل لديه من ثقافة واسعة للخوض فيه. فأخذ يحرّر المقالات ويرسلها إلى الصحف التونسية مثل "الزّهرة" و"النهضة" و"الحاضرة" و"الصّواب"...كما بعث بخواطره إلى الصحف الشرقية مثل مجلة "الإسلام" ومجلة "الفنون"...

كان لمقالاته صدى جعل البعض يشعرون أنّ انتقاداته موجّهة إليهم وأنّ فيها مساسا بمصالحهم، فتألّبوا ضده

وأخذوا يحيكون له الدّسائس، فزعموا أنّ له يدا في السياسة والانتقاد على الدولة، وحرّروا هذه الدعاوى إلى الكتابة العامة للحكومة، فتمّت دعوته للتحقيق معه سنة 1895م. ولمّا مثل بين يدي الوزير الأكبر سئُل عن التهم الموجهة إليه، فأجاب بما أظهر براءته، وبيّن أنّ غرضه الوحيد هو إيقاظ بني وطنه خصوصا والمسلمين عموما، ودعوتهم إلى السير على ما كان عليه السلّف الصالح، وسلوك الناشئة سبيل الرّشاد.

وإن لم يُفصِحْ صالح سويسي في ترجمة حياته عن تفاصيل تلك المحنة وأسبابها، فإنّنا نجد في كتاب "آثار الشيخ محمد النخلي" تفسيرا للحادثة الأساسية التي تسببت في ذلك. فالتّهمة التي وُجِّهَتْ إليه هي المشاركة "...في تنظيم سياسي بالقيروان يضمّ الشاذلي بوراس ابن المفتي، وصالح سويسي ومحمد النخلي المعروف بعواطفه المعارضة لفرنسا". (21)

ويروي الشيخ محمد النخلي في سيرته الذاتية صورة هذه الحادثة فيقول: "لمّا ارتقيت إلى رتبة التطويع عام 1308هـ (1890م)، اتجهت أنظار الحسدة إلى مآل النّجباء وعاقبة الفضلاء، وأخذوا يدبّرون ضربة من قِبَل الحكومة تكون عائقا عن الرّقي ومانعا عن السبّق في حلبة العلوم... فلمّا رجعت إلى القيروان صدر منّي تأديب لبعض الأشقياء في محاضرة، فأرجف ذلك الغبيّ بأنّي عيّرته بتعلم اللغة الفرنسية، وأنّي انتقصت هذه اللغة التي تريد الحكومة نشرها ذمّا وقدحا، وعددتها من المنهيّ عنه شرعا..." (21) وقد ناصره صالح سويسي والشاذلي بو راس، فصارا متّهمين معه.

وإن أثبت المتهمون براءتهم ممّا نسب إليهم وخرجوا من تلك المحنة سالمين، فإنّ ذلك لم يكن إلا إلى حين، إذ استغلّت السلطات الفرنسية أول فرصة للانتقام من الشيخ النخلي بالاعتراض على تعيينه عضوا في مجلس الإصلاح بجامع الزيتونة. أما صالح سويسي فقد واصل مقالاته الوعظية والإصلاحية، فعاد أعداؤه للوشاية به وتلفيق التهم ضدّه إلى أن نجحت مساعيهم وحكم عليه بالإبعاد إلى مدينة توزر.

يقول صالح سويسي عن تلك المحنة: "...فتوجّهت إلى بلد توزر أنا وزوجتي وخالتي عام 1317هـ/1897م، وتكبّدنا الأتعاب من حرّ الهاجرة حيث كان السفر وقت المصيف. ولمّا وصلنا إلى توزر اقتبلنا أهلها بالترحيب والإكرام، وخصّصوا لنا دارا لسكنانا بغير كراء، فجزى الله أولئك الأفاضل خير جزاء...فكانت تلك المحنة في طيّها منحة، حيث فتح في مدّتها سوق الأدب ما بيني وبين حضرة العالم المتفنّن الأديب الشيخ يوسف بن عون. فصارت تلك الأيام مواسم، ثغورها بواسم." (9)

ويوسف بن عون المذكور هو فقيه وأديب شاعر (1840–1919)، من مواليد نفطة. تخرّج من جامع الزيتونة وتولى القضاء بتوزر. له منظومة فلكية في عرض توزر ونفطة استخرجها من "الرسالة الماريدينية". (22)

وما أن انقضت مدّة الإبعاد حتى عاد صالح سويسي إلى القيروان ليستأنف نشاطه الأدبي والإصلاحي، وقد تفتّقت موهبته الشعرية، فأخذ في نظم القصائد "طبيعة وهبة من الله لا أخذا عن أحد" –وما من شكّ أن المدّة التي قضاها في صحبة

الشيخ يوسف بن عون قد ساعدت على بروز تلك الموهبة وصقلها– وصار يكاتب جريدة "الحاضرة" في ما يعنّ له من الخواطر في أغراض متنوّعة، وكانت بداية فترة خصبة من النّتاج الأدبي.

علاقته بالمجتمع القيرواني

لم تكن العلاقة بين صالح سويسي ومدينة القيروان مجرّد علاقة انتساب شخص إلى مسقط رأسه، إذ كانت القيروان بالنسبة إليه هي "الوطن" و"الموطن"، منها استلهم أدبه وإلى أهلها وجّه وعظه ودعوته الإصلاحية. فقد تأثّر بالمجتمع القيرواني وأثّر فيه، فلا يمكن الحديث عن الأديب دون ذكر الرابط الرّوحي العميق الذي يشدّه إلى مدينة القيروان.

ويؤكّد لنا الشيخ الفاضل بن عاشور ذلك بقوله: "...فقد نشأ في مدينة القيروان يستلهم من معالمها وآيات عظمتها الباهرة وذكريات المجد الإسلامي التي تملأ جوّها العبق موقظات للحسّ الباطني ومحرّكات لرواكد العزائم والهمم." (23)

ويزيدنا محمد الحليوي تأكيدا وتعليلا بقوله: "...ألم تكن عاصمة من عواصم الإسلام الكبرى ؟ أو لو يكن لها تأثير في مصائر إفريقيا وتحكّم في مجرى التاريخ الإسلامي ؟ أليست المعالم والآثار والمعاهد التي تركها الأسلاف بالقيروان توحي إلى ضمير الرجل المستنير بشيء من المسؤولية أمام التاريخ وتدعوه إلى أن يعمل في أبناء قومه على بعث اليقظة

والشعور لاسترجاع العزّة المفقودة وإحياء المجد الداثر ومجاراة أمم الشرق في التطور والنهوض والأخذ بأسباب الثقافة العصرية التي تضمن لها حياة العزّة والكرامة؟"(24)

وبقدر ما تأثّر صالح سويسي بالمجتمع القيرواني فإنه أثّر فيه، فكان محرّكا للأسمار الأدبية والحياة الفكرية والعلمية، يستحثّ العلماء (وبصفة خاصة الشيخ محمد النخلي) لتنظيم دروس تنفع الخاصة والعامة، ويعقد المجالس الأدبية التي تجمع الطرافة والمزاح إلى جانب الجدّ.

تقول نجوى الكافي: "في هذه المجالس كان يتمّ نقد الصحف التي تصدر في ذلك الوقت كالهلال والمؤيّد واللّواء. وهذه المجالس كان يعقدها سواء في منزله –كما ذكر أفراد عائلته– أو كان يؤجر أمكنة خاصة لتلك الغاية، وبذلك يجمع أدباء القيروان كلّهم، فيتبادلون الآراء ووجهات النظر، ويستفيد البعض من تجارب البعض الآخر بالنقد النزيه والحوار الشيّق. وكما ذكر معاصرو الشيخ سويسي، فقد كان لهذه المجالس المتعددة ذات النّتائج الإيجابية أثرها المحمود في الأدب التونسي عامة، وفي صقل مواهب أدباء القيروان خاصة". (25)

ومن إسهامات صالح سويسي في تنشيط الحياة الأدبية والفكرية بالقيروان وفي نشر الدعوة الإصلاحية بها، مشاركته في تحرير جريدة " القيروان "، وهي " جريدة إصلاحية، علمية، دينية، فكاهية" –كما جاء في عنوانها– كان يديرها الأديبان عمر العجرة والجيلاني الحمّار. وقد أعاد

صالح سويسي نشر روايته " الهيفاء وسراج الليل " في تلك الجريدة سنة 1921م، بعد أن أدخل عليها تحويرات تجعل من مدينة القيروان قبلة طالبي العلم، وليشيد بعمل الشيخ محمد النخلي في سبيل الإصلاح.

منزلته بين أهل العلم والأدب

إنّ مختلف الشهادات التي وصلتنا تقرّ بمنزلة صالح سويسي بين أدباء عصره ورجال الإصلاح من علمائه. فإضافة إلى ما خصّه به معاصروه من تراجم تفصح عن إعجابهم بهذا الأديب المصلح، مثل محمد الحليوي والشيخ الفاضل بن عاشور وزين العابدين السنوسي، وجدنا في رسائل أبي القاسم الشابي إلى محمد الحليوي وإلى غيره من أدباء القيروان ما يدلّ على احترامه لصالح سويسي. (26)

كما أنّ التزامه بالدّعوة الإصلاحية ومؤازرته للشيخ محمد النخلي ضدّ مشائخ الزيتونة " الجامدين " قد بوّأته مكانة لدى شيوخ الزيتونة المستنيرين. فهذا الشيخ الطاهر بن عاشور يقول في رسالة إلى الشيخ محمد النخلي (مؤرخة في 14 رجب 1324هـ/سبتمبر 1906م) "...وعسى أن يلوذ بكم الفاضل الأديب الصادق سيدي صالح سويسي، فبلّغوه سلامي وابتهاجي بلطفه وصدق لهجته..." (27).

وقدّم الدكتور أحمد الطويلي في الملحق الثقافي لجريدة " الحرية " ، الصادر يوم 4 فيفري 1999، رسالة من الشاعر محمد بوشربية، موجّهة من حمّام الأنف بتاريخ ذي الحجة 1357هـ/فيفري 1939م إلى "سعادة الأديب الكبير والشاعر

القدير والخطيب الشهير، شاعر القيروان الأستاذ الشيخ صالح سويسي الشريف لا زال للأدب والفضل آمين.˝ ثم يبدأ رسالته بقوله: ˝تحية عاطرة وسلاما سنيا وبعد، فلقد اهتبلت فرصة عطلة هذا العيد، أنا لكم ما تبتغون، وأمدكم بما ترغبون، لأتشرّف بجوابكم عن قصيدتكم العصماء، تذكار الودّ الخالص والصداقة المحضة...ويعلم الله أني ما تأخرت عن مكاتبتكم أو تباطأت عن مراسلتكم إلاّ لشواغل آخذة بالخناق...˝ (28) والرسالة مشفوعة بقصيدة تدل على ما كان بين الشاعرين من صادق المودّة وفائق التقدير.

تعلّقه بالشيخ محمد النخلي

سبق أن أشرنا إلى دور الشيخ محمد النخلي في تكوين صالح سويسي الفكري، إذ عوّضه عن قصور تعليمه، فكانت بينهما علاقة روحية حميمة تذكّرنا بعلاقة حافظ ابراهيم بالشيخ محمد عبده، فإذا هو يلهج بذكره ويسانده في محنه. ويذكر الشيخ الفاضل بن عاشور متانة هذه الصلّة فيقول: ˝ وكان صالح سويسي يقبل على مجالس الشيخ النخلي في لهفة حتى أصبحت دعوة الشيخ محمد عبده متعة روحه وذكر الشيخ النخلي لمقامه منها سلواه وعدّة ضميره الإصلاحي. ففاض شعره ونثره بهذا الوجدان الذي سيطر على نتاجه ومؤثرا في نتاج الأدباء من حوله ومن بعده.˝ (29)

ويخبرنا الشيخ ابراهيم النيفر عن أهمية الدور الذي قام به صالح سويسي في مساندة الشيخ النخلي ضدّ مشائخ الزيتونة الرافضين لكلّ تجديد وتغيير، في رسالة موجهة إلى هذا الأخير، مؤرخة في 2 رجب 1324هـ/ سبتمبر 1906م، حيث

يقول : "هذا وإن العبد يطلب من حضرتكم أعزكم الله أن تكلّفوا شخصا بل اثنين متنورين من طرفكم بأن يردّوا على جريدة " المزعج " في ما نشرته من شين مقامكم ممّا نشأ عن الحسد (...) ويرسلان الردّ إلى جريدة " الحاضرة " و" الزهرة "، لا لجريدة غير عربية لا يقرأها العموم. وتكون الردود على الأسلوب الذي كتبه شقيقنا وبدون إمضاءات بيّنة لكيلا يقول الناس إن حزبه محصور في محمد النيفر وابراهيم النيفر وصالح سويسي والباجي جوّادة." (30)

وقد عبّر صالح سويسي عن تعلقه وإعجابه بالشيخ محمد النخلي في قصائد عدة، منها قصيد "طلب العلم" الذي نظمه سنة 1905م ، بمناسبة رجوع الشيخ النخلي إلى القيروان لقضاء عطلة الصيف، ومطلعه:

حَبَّذَا الْعِلْمُ و الْحِجا و الدراية والتَّفَانِي فِي خِدْمَةِ الدِّينِ غَايَه
أيُّهَا النَّاسُ دُونَكُمْ و الْمَعَالِي و التَّرَقِّي فَإِنَّ فِي النَّوْعِ آيَه
أيُّهَا المُسْلِمُونَ رُدُّوا فَخَارَا بَزَّهُ الأجْنَبِي بِفَضْلِ السِّرَايَه
و اذْكُرُوا مَجْدَكُمْ وَمُلْكَ أبيكُم وارْفَعُوا شَأنَ دِينِكُمْ لِلنِّهَايَه

ومن تعلّق صالح سويسي بالشيخ محمد النخلي أن جعل منه بطل روايته " الهيفاء وسراج الليل " في صيغتها الثانية، عندما أعاد نشرها بجريدة " القيروان " سنة 1921م، فيقدّمه على لسان الهيفاء كما يلي: " ...أنبئت وأنّه حلّ بوطننا رجل قوي الإيمان من أهل القيروان، عالم بعلوم الدّين خبير بحوادث الزّمان. مولع بالإصلاح وتهذيب الأفكار. متخلّق بأخلاق أسلافنا الأطهار. شيخ عليه مهابة الإسلام في التدريس

والإصلاح العام. ولقد عزمت بحول الله على إرسالك معه إلى بلده الطيّب لتقتبس من علمه النّافع وإرشاده العظيم. وبعد تنوير عقلك بالعلوم الدينية والأخلاق السلّفية يرسلك إلى إحدى الممالك الرّاقية لتقتبس من لغتها وعلومها العصرية ما تنفع به أمّتك في معترك هاته الحياة (...) فقال سراج الليل(...) فما اسم هذا الأستاذ المصلح العظيم ؟ فقالت أستاذ كبير ومصلح شهير يسمّى محمد النخلي..."

أخلاقه

يتّفق المتحدثون عن صالح سويسي أنّه كان أبيّ النفس، كريم الخلق، متواضعا، حسن المعاشرة، ذا شعور فيّاض وعاطفة مندفعة، تقيّا ورعا، نصوحا واعظا، اشتهر بالجدّ وإن كان لا يكره الفكاهة الحلوة والنادرة المستظرفة، كثيرا ما يسوق منها في مجالسه ما امتلأت به ذاكرته الزّاخرة بالمطالعات.

وهو كما يقول محمد الحليوي : " يمتاز بأنه الأديب الوحيد الذي استطاع أن يختلط بجميع طبقات الشعب، وأنه الأديب الوحيد الذي استطاع أن يفوز بحبّ الناس جميعا، وكان في اختلاطه بكل الطبقات يعمل عمل المصلحين المرشدين..." (31)

وإلى جانب ما اشتهر به من حبّ مجالسة الناس، وبصفة خاصة المثقفين من أهل العلم والأدب، فقد كان له ميل إلى العزلة والانفراد لمطالعة الكتب ونظم الشعر والكتابة.

ونجد في أخلاقه أيضا أثر الشدّائد التي صادفت حياته. فقد مات والده فعرف مرارة اليتم وما تورثه من بؤس وحرمان، فكان حنونا على بناته، عطوفا على اليتيم والمسكين. وأصيب بخيبة أمل في محاولته تحصيل مزيد من العلوم، فأطنب في التذكير بفضل العلم والتعليم...

وفاتــه

عاش صالح سويسي سبعين عاما، وتوفّي يوم 18 ديسمبر 1941م، فتركت وفاته شعورا بالفراغ في ذلك المجتمع الذي تأثّر به وأثّر فيه. وقد عبّر محمد الحليوي عن ذلك الشعور حين قال: ...سوف لا يزيدنا ممرّ الزّمان إلاّ شعورا بالفراغ الذي ألمّ بمعالم القيروان ونواديها، فنحن نمرّ بالأماكن التي كان يغشاها فلا نجده في صدرها كما كنّا نجده، ونقف بعض المواقف التي يزينها فلا نسمع صوته الرنّان الذي كان يترجم عن شعور فيّاض ونفس أبية كريمة.˝ (31)

لقد لخّص زين العابدين السنوسي حياة صالح سويسي أحسن تلخيص حين قال : ˝ هو أديب القيروان وحامل راية بيانها طيلة هذا الربع قرن الماضي...لقد شبّ أديبا واكتهل محترفا مهنة الأدب برغم صعابها وما حفّها الزّمان به من ضيق، إذ سحر مماشيها المسلوكة بما عبدّه حذوها من الطريق الرّحبة الممهودة الباذخة...˝ (32)

الصحفي الأديب

بدايات حياته الأدبية

يخبرنا صالح سويسي أنه بدأ حياته الأدبية بالكتابة في الصحف، فكان يحرر المقالات الأدبية و"الانتقادات السياسية" ويرسلها إلى الصحف. وأول جريدة نشرت مقالاته هي جريدة " الزهرة " التي أسسها عبد الرحمن الصنادلي سنة 1886م. وقد صادفت ميول سياستها النزعة الإصلاحية التي تشبعت بها نفس الأديب. فقد " ظهر عليها في أول الأمر قلة الاكتراث بالإدارة ورجالها، وقلة الثقة في منشآتهم وتصرفاتهم، وبذلك ازدهر فيها فنّ التّحرير الصّحفي الحقيقي، الذي مبناه الانتقاد والمطالبة والاحتجاج، وشبّ فيها المقال النقدي(...)حتى كان ظهورها يعتبر في تاريخ الصحافة بتونس، اعتبار ظهور جريدة " المؤيد " بمصر. واغتنمت الحكومة أول فرصة دخلت فيها جريدة " الزهرة "، بمهاجمتها للإدارة ورجالها، تحت طائلة القانون، فعطلتها سنة 1896م." (33)

ولما تعطلت جريدة " الزهرة " أخذ صالح سويسي يراسل مجلة " الإسلام " المصرية، ومجلة " الفنون ". ولم يكن مرتبطا بصحيفة معينة، بل كان يرسل خواطره وآراءه إلى صحف مختلفة، فنشرت له " النهضة " و" الحاضرة " و" الصواب " و"خير الدين " و" القيروان "...لذلك فإنه من العسير

جمع شتات إنتاجه، ولم يُعْرَفْ منه إلاّ ما جمعه بنفسه، وهو بدوره غير متداول، عزيز المنال.

ومن خلال النصوص التي نشرت في كتاب " الهيفاء وسراج الليل "، نكتشف مصلحا اجتماعيا وسياسيا، يكتب بأسلوب طريف بالنسبة لعصره إذ يجمع بين المقالة الصحفية والأسلوب القصصي (بمفهوم القصّة المتداول آنذاك). فلا هي مقالة ولا هي قصة، بل شيء بين الاثنين. فقد جعلها في صورة حكايات مستوحاة من حياته وتجربته، ومن مشاكل المجتمع التي أحصاها وتعرف عليها. ومن خلال تلك المقالات التي أضفى عليها ثوبا قصصيا، يبث الأديب الأفكار الإصلاحية التي يستوحيها من مجلة "المنار" ومن توجيهات الشيخين محمد عبده ومحمد النخلي، يؤيدها بما وسعت ذاكرته من حكم وأمثال، وأشعار حكميّة، وآيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، بحسب ما يقتضيه السياق.

فمن المشكلات الاجتماعية التي استأثرت باهتمامه في جلّ تلك النصوص، تحتلّ قضية وجوب التّكافل الاجتماعي والأخذ بيد اليتيم والفقير المرتبة الأولى (نصوص " اليتيم والنّعش "، "منظر من مناظر اليتم "، "منارات تضيء وبيوت في الظلام"...). فالفقر واليتم حالتان متلازمتان في أكثر الأحيان، تؤديان في جميع الحالات إلى مراتع الفحش والموبقات وفساد المجتمع. وقد نُشِرَ هذان النصّان في كتاب " فجائع اليتامى والبائسين " (صدر سنة 1911م) الذي جمع فيه صالح سويسي مقالات عن البؤس والاستغاثة لحافظ ابراهيم والمنفلوطي ونجيب حداد، أضاف إليها هذين النّصين.

ولتحقيق التكافل الاجتماعي، لا بدّ من إصلاح الأغنياء فكريا، وتوعيتهم لكي يقوموا بدورهم في إصلاح المجتمع ماديا (نصّ" الوجيه والكاتب "). ولذلك نرى المؤلف يغلظ في انتقاد عديمي الضمير من الأغنياء (نصّ" الصخور تمشي ") ويحاول إيقاظ ضمائرهم بالاستعطاف الباكي حينا، وبإثارة الواعز الدّيني لديهم أحيانا، فيذكّرهم بما وعد الله من ثواب لعباده الصالحين والمتّقين، وما توعّد به من عقاب للمتجبّرين والمفسدين.

كما يتعرض المؤلف في تلك النّصوص إلى الآفات التي تنخر المجتمع مثل الحسد والنّميمة والتملّق للحاكم والكذب والنّفاق... فيذكّر بما ينتج عن تلك الصفات الذميمة من فساد، ويدعو إلى نبذها والعودة إلى ما جاء به الدّين.

ويفسّر صالح سويسي فلسفته الإصلاحية في نصّ " الخيّر والشرير "، وملخصها أنّ الواعز الديني الذي يصقله التعليم والمطالعة المفيدة يحفظ طيبة الإنسان الفطرية، فيصلح ويصلح به المجتمع. وأمّا الإصلاح السياسي، فلنا نماذج منه في نصّي " الصخر يمشي " و" خصومة بين مدينة وإدارة ". ففي النص الأول يشير المؤلف إلى مشكلة تحيّز القضاء للأغنياء دون الفقراء، فيدعو إلى العدل والمساواة في العدالة بين الفقير والغني. أما في النص الثاني فهو يجعل مدينة القيروان تتخاصم مع الإدارة الاستعمارية. وهي مواقف جريئة بالنسبة لزمن كتابتها.

أما من حيث الأسلوب، فالقالب القصصي لا يعدو أن يكون مطيّة للتّخفيف من ثقل المضامين الوعظية على نفس القارئ، وجسرا لإبلاغ المبادئ الأخلاقية والقيم الدينية وتركيزها في الأذهان. فالطريقة الروائية تمكّن المؤلف من قطع الرّتابة وإضفاء طابع من الجدّة على تلك المضامين القديمة.

ونلاحظ أنّ الحوار الوعظي في تلك النصوص غير متكافئ، فبقدر ما يطول حديث المرشد الواعظ، يقصر حديث الطرف الموعوظ. كما يستعمل المؤلف عديد الأدلة النقلية والعقلية، يدعمها بما يراه من شروح وتعاليق، فيكثر الاستشهاد والأمثلة من القرآن والحديث والأشعار الحكمية والأمثال الوعظية...

ويلجأ صالح سويسي لبلوغ غرضه الإصلاحي لتنويع طرق الإيحاء والتأثير، كالتنبيه والتهويل والتهكّم والإنكار وتكرار أفعال الأمر والنهي، والإكثار من الصفات، وضرب الأمثال لاستخلاص العبرة وإثبات الحُجّة والإقناع الخطابي.

ونلاحظ أخيرا غلبة الطابع الوصفي على تلك النصوص، مما يجعلها أقرب إلى التحرير الصحفي. فنرى المؤلف يشرح الأحداث، ويعدد أسبابها، ويستشهد عليها، ويقارنها بغيرها في الماضي والحاضر. والظنّ أنه يرمي من وراء ذلك إلى تقريب المضامين التي يريد إبلاغها إلى المترددين في قبولها، وترغيبهم في تبنّيها والعمل بها.

كما يشير مصطفى الحبيب البحري إلى أنّ صالح سويسي قد ضمّ إلى ديوان " زفرات الضمير " (صدر سنة 1911) أربع عشرة مقالة ، استغرقت ما يقارب ستاً وثلاثين صفحة، وهو يرى أن تلك المقالات ضعيفة الصياغة، إلا أنها هامة لأنها تعالج مواضيع قومية واجتماعية. (7)

المقامـات

عرف مطلع القرن العشرين علاقة جديدة بين الأدب والصحافة أثّرت في أساليب الكتابة النّثرية، فأصبحت المقامات تكتب لتنشر على صفحات الجرائد والمجلات، وأخذت تتحرر من القيود الشّكلية وتخفّف منها لإبراز الفكرة بأكبر قدر من الوضوح.

ولسنا ندري إن كتب صالح سويسي مقاماته لينفذ بأفكاره إلى أولئك الذين ما زالوا يعتبرون ذلك اللون أساس النثر الأدبي، أو تقليدا لمقامات محمد المويلحي، أو لمجرّد التّوق لتجربة الكتابة على ذلك النحو لما فيه من سجع وألوان البديع التي تجعله قريبا من النّظم الشعري الذي تهواه نفسه.

في مقدّمته لرواية " الهيفاء وسراج الليل " (الدار التونسية للنشر، 1978) يقول النّاشر : " لقد وجدنا شطرا من هذه الرّواية في كرّاسة للمرحوم صالح سويسي الشريف تحتوي على " مقامات تونسية " وأشعار..."، وقد أُلحِقَتْ هذه المقامات، وعددها ثمانية، بالكتاب المذكور (ص 93–147). وفي نفس الكرّاس، وجد النّاشر ترجمة للمؤلف بقلمه جعلها

مقدّمة للمقامات، إذ يقول فيها : " وقد أنشأت هذه المقامات تمثل للقارئ تاريخ حياتي وما قاسيت من المحن..."

ويأخذنا المؤلف من خلال مقاماته في رحلة عبر المدن التي زارها في مختلف ظروف حياته، وانطلق قلمه لانتقاد المجتمع التونسي والتعريض بما استفحل فيه من سيئ العادات، مثل النّميمة والوشاية والحسد، وعدم الاكتراث لحال اليتيم والمسكين، والتّنكر لرجال العلم والأدب والإصلاح ... وغيرها من مشاهد السوء التي ينوء المجتمع تحت كلكلها. ويبيّن المؤلف غرضه من الكتابة، وهو إيقاظ بني وطنه خصوصا والمسلمين عموما "إلى السير على ما كان عليه السلف الصالح وسلوك النّاشئة سبيل الرشاد". كما وجد المؤلف في تلك المقامات مجالا رحبا لعرض ما اجتمع لديه من أمثال وحكم وأشعار ومنتخب الآيات القرآنية والأحاديث النّبوية ...

ويشير محمد صالح الجابري (34) إلى ثلاثة من تلك المقامات، نشرت في كتاب " منجم التبر في النثر والشعر " الذي أصدره صالح سويسي سنة 1899م، وهي " المقامة البدوية" و" نصائح وعبر " و" نائم ويقظان". وهو يقول عنها : "...وهي مجموعة ...مقامات مسجوعة تكلفت الجناس والمقابلة، وعنيت بتقليد الأساليب القديمة..."، ثم يضيف بعد تلخيص تلك المقامات : " ولا شكّ أننا نلمس بذور تفكيره الإصلاحي، وانطباع الثقافة الداعية إلى استنهاض الشرق، ودفعه إلى كسب المعارف العلمية الجليلة في مقاماته هذه

التي اتخذت مثل القصص والحوارات مما أتاح للكاتب مجالا للتخيل، من غير أن يحيد عن واجهة الإسلام، والدعوة إلى العلوم العصرية، والموازنة بين حضارتين تتباينان بمرور الزمن. وهي المعاني التي كرّس لها هذا القصاص "الرّائد" كل منتوجه الفكري، من شعر وقصة ونثر."

كما جاء في المقدمة التي وضعتها الدار التونسية للنشر للمقامات (وهي غير ممضاة) : "إنّ صالح سويسي في مقاماته هذه صوّر لنا بأشكال مختلفة ما عاناه هو نفسه وما شاهده من مشاهد سوء، وهو المصرّ على الإصلاح، إصلاح الأفراد قصد إصلاح الجماعة، فالأمّة قاطبة. حاول أن يبثّ آراءه في هذا الفنّ من الأدب الذي هو أخفّ روحا من المقالة الصحفية لما يتّصف به من سجع يقرّبه من الشعر."

أدب الرّحلات

عرف أدب الرّحلات في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين رواجا لدى المؤلفين والقراء. فألف محمد السنوسي " الرحلة الحجازية "، وألف الشيخ محمد بيرم الخامس كتاب " صفوة الاعتبار "، وصنّف الشيخ محمد الخضر حسين رحلة في وصف الجزائر، نشرت تباعا في مجلة " السعادة العظمى "، ثم لخص رحلته إلى مصر وسوريا وتركيا ونشرها تباعا في جريدة " الزهرة "، أما علي الورداني، وهو من خريجي الصادقية الأولين، فقد ألف رحلة عن الآثار الإسلامية بالأندلس بعد زيارته لإسبانيا سنة 1888م، نشرت تباعا في جريدة " الحاضرة ".

وإن لم يسافر صالح سويسي خارج البلاد التونسية، فإنه تجول في مختلف ربوعها، وقد استهواه رواج أدب الرحلات، فاستلهم منه رحلتين، لا نعلم إن هما نشرتا، وهما " السرور القابل في زيارة تونس ونابل"، ألفها سنة 1893م، و "قراءات الزمان في زيارة باجة وزغوان"، ألفها سنة 1899م.

مؤلفات نثرية أخرى

- " النثر البديع في الصلاة على الشفيع": يقول صالح سويسي إنه طبع بالمطبعة التونسية سنة 1898م، ويذكر محمد محفوظ أنه طبع على نفقة محمد الحبيب باي، بالمطبعة التونسية، سنة 1923م.

- "رسائل الحياة": قال عنه زين العابدين السنوسي: "مجموعة نثرية من أبدع ما خُطَّ في الممالحة".

- "دليل القيروان": طبع بتونس سنة 1911م.

- "رواية الهيفاء وسراج الليل": صدرت تباعا بمجلة "خير الدين" سنة 1906م، ولم يكتمل نشرها لمصادرة المجلة. أعيد نشرها سنة 1921م بجريدة "القيروان"، بعد أن أدخل عليها المؤلف بعض التحويرات. وفي سنة 1975م أعاد محمد صالح الجابري نشر ما صدر منها في كتاب "القصة التونسية، نشأتها وروادها". ونشرت في كتاب مفرد صدر عن الدار التونسية للنشر (ديسمبر 1978)، مع مقامات وقصص أخرى.

من نثره

المقامات

ترجمة المؤلف بقلمه

(يتّضح من خاتمة هذه التّرجمة الذّاتية أنّ صالح سويسي جمع المقامات التي ألّفها وعزم على نَشْرِهَا في كتاب جعل ترجمة حياته مقدمة له ، وقد استعمل في كتابتها مقاطع مسجوعة حتى تتلاءم مع هذا الغرض. واحتراما لمشروع المؤلّف نورد هذه الترجمة الذاتية في المكان الذي اختاره لا مع ترجمة حياته كما اقترُحَ علينا.)

* * *

إنّني عبد الله، صالح بن عمر سويسي الشريف القيرواني، يتصل نسبي بسيدي علي العواني، جدّ الوالدة من أسباط الحسين بن علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه.

ولُدِتُ بالقيروان، عام 1291هـ/1871م، وكان أبي وسطا في اليسار، فسنح لأفكاره لأمور اقتضاها الحال أن يسافر إلى حاضرة تونس فارتحلنا إليها عام 1296هـ/1876م، فأدخلني والدي إلى مكتب القرآن، فأول من قرأت عليه كتاب الله الفاضل الخيّر سيّدي الشيخ الصادق جمال الدين الخياري بكتّاب ولي الله سيدي أحمد بن عروس، ثم انتقلت إلى الأجلّ الكامل أستاذي سيّدي محمد بلّوم القليبي، وباشرت القراءة

عليه بكتّابه الكائن بسوق البلاط، وختمت عليه القرآن العظيم. وأقمنا بتونس في عيشة لا يشوبها كدر لأن الوالد رحمه الله كانت له مكانة عظمى في قلوب أهالي البلد. ثم وقع للوالدة حال ربّاني ومرض روحاني فتكدّر صفو تلك الإقامة، ورأينا أن العود إلى الوطن فيه الراحة والسلامة، فرجعنا إلى وطننا القيروان عام 1306هـ/1886م. وخلّفنا الوالد بتونس لقضاء مآرب له هناك فمكث نحو السنة ثم عزم على الرحيل فمات فجأة ليلة سفره وذلك في شهر رمضان عام 1307هـ/1887م، فبلغنا ذلك النبأ المحزن وتفاقمت علينا الكروب، وشققنا المرائر عوض الجيوب، ولا تجدي الأحزان، وكل من عليها فان :

ومن كانت منيّته بـأرض فليس يموت في أرض سواها

فأقمت ببلدي القيروان بين أعداء وحساد، وتجرّعت من فتنهم وأذاهم مرائر الأنكاد. وكنت في خلال هذه المدة، وعظائم تلك الشدة، مثابرا على مطالعة الكتب الأدبية، والمجلات الشرقية، والدواوين الشعرية، لكي تزاح عني سحائب الهموم، وتنكشف عن قلبي تلك الغيوم.

ثم حصل لي شغف بالتحرير السياسي والأدبي، فأوّل جريدة نشرت فيها انتقاداتي الحقة، جريدة "الزهرة" التونسية، فكان ينشر فيها الانتقاد الحقي إلى أن سطا عليها صارم الانقراض، وأصبحت في خبر كان وكان فعل ماض.

ثم شرعت أحرر وأرسل ما أحرره تارة إلى مجلة "الإسلام" المصرية، وأخرى إلى مجلة "الفنون". وغرضي

الوحيد هو إيقاظ بني وطني خصوصا والمسلمين عموما إلى السير على ما كان عليه السلف الصالح وسلوك الناشئة سبيل الرشاد، وليس من غرضي كما زعم بعض السعاة أن أشوش أفكار أبناء هاته البلاد، بإلقاء الدسائس وبثّ الفتن. وما زلت كذلك إلى أن تحزّب عليّ حزب الطغاة واختلقوا عليّ من الأراجيف أقوالا. منها أن لي في السياسة يد وفي الانتقاد على الدولة عامل قوي، فحُرِّرَتْ تلك الأقاويل بمداد الأغراض، وحملت على بريد الضغائن إلى محكمة الكتابة العامة بالوزارة التونسية، فأتى إعلام إلى مراقبة القيروان بتوجيهي إلى القسم الأول بالوزارة فتوجهت إليه سنة 1315هـ/1895م. ولمّا مثلت بين يدي جناب الوزير الأكبر سُئِلْتُ عما بلغ مسامع الوزارة، فأجبت جوابا انبلج به صبح الحقّ لعدل الوزير وعناية الله. ومن عجيب ما اتفق لي قبل مقابلة سموّ الوزير، أني بينما كنت واقفا بجهة القسم الأول إذ أتاني رجل ملتحف عمره لا يتجاوز الأربعين، لحيته سوداء، ووجهه أنور، وخاطبني بقوله: هل تحسن القراءة؟ فقلت له: نعم. فدفع لي بورقة كتب عليها هذا البيت:

فما ثمّ إلا الله في كل حالة فلا تعتمد يوما على غير لطفه

ثم أخذها مني وقال: أنا قد أرسلتني تلك المرأة المريضة للوقوف معك في هذا الموقف الصعب فكن ثابت الجنان مرتاح الفكر فإني معك حسب الإذن من تلك المرأة المريضة. ثم ذهب ولم أدر أين مضى فحصل لي من ذلك الحين نشاط وجذل لا أقدر التّعبير عنهما. وقد رأيت من جلالة الوزير قبولا حسنا

وخطابا جميلا. ثم استأذنت منه الرجوع إلى بلدي فأذن لي بذلك. ولجناب وزير القلم على العبد في هذا المقام الخطير جميل وأي جميل، فجازاه الله عن آل البيت النبوي كل خير. ثم رجعت إلى الوطن ومكثت بين مصائب ومحن. وحيث إن سهم الأعداء قد أخطأ في تلك المرّة، فاستأنفوا المضرّة. وفي أثناء تلك المدة توفيت والدتي عام 1319هـ فدارت بي المصائب والجوازم كالبحر المحيط، والله من ورائهم محيط. وكُتِبَتْ فيَّ التّقارير، وحُرِّرَتْ التّحارير، وأنا ثابت الجنان متوكل على ربّ العالمين. قال تعالى "فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين"(1)، إلى أن وافاني كتاب ثبت في علم الله تضمّن إبعادي إلى بلد توزر مدة ثلاثة أشهر، فامتثلت لهذا الحادث الطفيف، وقلت لطف خفيف. وهذا الحادث الثاني متسبّب عن سعاية أقوام باعوا دينهم بدنياهم، ونسوا يوم أخراهم. فتوجهت إلى بلد توزر أنا وزوجتي وخالتي عام 1317هـ/1897م وتكبدنا الأتعاب من حرّ الهاجرة حيث كان السفر وقت المصيف. ولما وصلنا إلى توزر اقتبلنا أهلها بالترحيب والإكرام، وخصصوا لنا دارا لسكنانا بغير كراء، فجزى الله أولئك الأفاضل خير جزاء، أخصّ منهم بالذكر سعادة المرحوم سيّدي عبد الحفيظ بن أحمد نائب جمعية الأوقاف بالمكان، فإنه الرجل المعنيّ بقول الشاعر:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

أمطر الله على ضريحه سحائب الرحمة، وكشف عن أهله

(1) آل عمران الآية 175

وبنيه مدلهمات الغمة، فكانت تلك المحنة في طيّها منحة، حيث فتح في مدتها سوق الأدب ما بيني وبين حضرة العالم المتفنن الأديب الشيخ يوسف بن عون في تأليفي المسمّى "منجم التبر في النثر والشعر" فصارت تلك الأيام مواسم ثغورها بواسم.

وبعد انقضاء مدة الإبعاد رجعت إلى وطني خاضعا لأحكام القضاء مقابلا لكل ما حلّ بي بالبشر والرضا. ومن ذلك الحين شرعت في نظم الشّعر طبيعة وهبة من الله لا أخذا عن أحد. ولم يثن عزائمي جملة ما وقع لي عن التحرير الأدبي ونظم الشعر في النصح والإرشاد، فصرت أكاتب جريدة "الحاضرة" التونسية في ما يعنّ لي من الخواطر الأدبية في أغراض متنوّعة، وقد خمدت جمرة أرباب الضغائن وانقشعت سحب الأكدار برعاية الله وروحانية رسوله صلّى الله عليه وسلّم. وقد ألّفت صلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، سمّيتها "النّثر البديع في الصّلاة على الشّفيع" وطبعت بالمطبعة التونسية سنة 1318هـ/1898م. وجمعت الكثير من نظمي ونثري في كتاب سمّيته "منجم التّبر في النّثر والشّعر" وذلك عام 1319هـ/1899م. وفي هذا العام أيضا صنّفت رحلة سمّيتها "قراءات الزمان في زيارة باجة وزغوان"، وكما صنّفت رحلة سنة 1313هـ/1893م عندما زرت نابل سمّيتها "السرور القابل في زيارة تونس ونابل".

ولا زلت أكتب في النّصح والإرشاد، وأهيم في نظم الشعر في كل واد. إلى أن سطا عليّ صارم الهوى، ومكابدة

الحُبِّ والجوى. وهو أمر قسري يهجم على النّفس والفكر هجوم السقم على الأجساد. ولم يحدّثني خاطري بفعل القبيح، أستغفر الله، وإنّما استئناس ونظر، ومحادثة وسهر. ولا رادّ لسهم القدر، ثم صدّ الحبيب ونفر، وانقطعت المكالمة وبقي النظر. وذلك بسعاية أقوام لئام، وأعداء الغلام. ولما سلّ عليّ صارم الهجران، أجّجت بين جوانحي نيران وأيّ نيران. فنظمت في ذلك جملة قصائد وأبيات جمعتها في ديوان، به صورة الحبيب سميته " ديوان سلامة الانسجام وشكوى الوجد والغرام ".

ثم خلعت بفضل الله تلك الأثواب الدنسة ولبست ثوب " إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا "[1]...وشرعت أمتدح الحضرة النّبوية فعسى أن أكون من الذين قال الله فيهم " خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ".[2]

وقد أنشأت هذه المقامات تمثّل للقارئ تاريخ حياتي وما قاسيت من المحن راجيا من كلّ من يطلع عليها أن يدعو لي ولجميع المسلمين بالمغفرة.

ونسأل الله تعالى أن يختم لي وللمسلمين بالسّعادة، وأن ينيلنا من فضله الحسنى وزيادة، وأن يفكّنا من قيود الضغط والقهر، وينجينا من مصائب الدهر، بمنّه وكرمه :

(1) الأحزاب، الآية : 33.
(2) التوبة، الآية : 102

رضيت بما قسم الله لي وفوّضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وشرّفه بالأصغرين القلب واللسان، وجعل حياته قصيرة الأمد، وأنفاسه محصية العدد. وخلق العالم وهو أعلم، لصنف النوّع المكرّم. وكونه له الاعتبار، وأمر بالتبصر والاستبصار. فسبحانه الواحد القهّار، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. فإذا نظر الإنسان بعين البصر والجنان، وجد أن تاريخ حياته لا يخلو من مصائب وأنكاد، واستحالة المسرّات إلى الأضداد. فبينما الأفراح ناجمة، وإذا الألواح هاجمة. وعندما ترى هذا النوّع يتقلب على بساط اللذّات، إذ تبصر ذاك متقلبا على أرض يتململ في أثواب الضرّ وآخر يتكئ على نمارق ويجلس على زرابي مبثوثات. وأخيرا يحمل على سرير الأموات. وحيث كان تاريخ الإنسان عبر، وتذكرة للبشر، أنشأت هذه المقامات لتجلي تاريخ حياة العبد الكرات، وجرّدت من الوهم شخصين للسمر سميت أحدهما الشاكر بن الراضي، والثّاني أبا العبر...

* * *

المقامة التونسية

حدّث الشّاكر بن الرّاضي قال : أزمعْتُ على الرّحيلْ، وشرْخُ الشبَّاب بلَيلْ، من مَرْكَزِ مَنْبَتِي الأغَرْ، إلى حيث يشاءُ القدَرْ. فامتطيتُ مَتْنَ البُخارْ، تارة بالدَّهْماء وطورا بالبِحارْ. إلى أن حلَلتُ بإيالَة صار الفكْرُ فيها مُؤْنِسْ، فاستَطْلَعْتُ اسمها

فقيل لي تُونِسْ. فصرت أجول طرقاتها. وأتمتّع في بدائع صفاتها. ورياض منتزهاتها. وأمرح في أسواقها الناضرة، وأستنشق نسائم نفحاتها العاطرة. إلى أن دخلت إلى سوق العطارين. فلاحت مني التفاتة إلى رجل يتجاوز الأربعين. ذي هيبة ووقار، وعليه سمت الأخيار. فقصدت جنابه محييا بالسلام، فرد بألطف عبارة مشفعة بابتسام. وقال : مرحبا بمبدي التحيه، ذي الأخلاق الرضيه، والأنفاس العبقريه. والآداب التي أبرقت، وعلى ملامح اللطف أعربت. أظنك غريب الدار، نازحا عن الأوكار. أرشدك ذكاؤك ونبلك، على أن تقصد مثلك. فقلت : نعم أيها اللبيب، وكل غريب للغريب نسيب. فقال : اجلس لكي تزاح عن فكرنا الغيوم، بمقاسمة الهموم. فجلست طبق أمره، وتحققت من بلاغة جمله واستقامة فكره. وقلت: من أي بلاد حضرتك، يكشف الله غمتك. وما اسمك الذي به تعرف ؟ فالمراد أن تشرف. فقال : أما الاسم فأبو العبر، وأما البلاد فالقيروان التي منها ينبوع العلوم انفجر. فقلت : يا الله العجب، وما أنآك عن البلاد التي نفى الله عنها الكرب. أليس بها الشعرات النبويه، والروضة البلويه. وأضرحة العلماء العاملين، وآية التابعين. فتنفس الصعداء، حتى خلت أن سيحل به الردى. وقال : كانت فصارت، وعليها رحى النائبات دارت. عراها الخلف، من لباس السلف. فلذلك فارقتها، والنفس شائقة لها. ثم تنهد، وذرف الدمع وأنشد:

مَا بَالُ دَمْعِكَ فِي النَّوَائِبِ قَدْ جَمَدْ وَأَرَاكَ لَا تَبْكِي عَلَى عِظَمِ النَّكَدْ
فَاللّٰهِ قَدْ جَرَّ الشَّقَاءَ لِذِي الْبَلَدْ [بَعْدَ ثَبْتٍ] الْمَجْدَ وَالْعَيْشَ الرَّغِدْ*
بَلَدٌ بِهِ خَلَفُ الصُّلَاحِ قَدْ فَسَدْ

فَالطَّوْدُ مِنْ فِعْلِ الْأَهَالِي قَدْ يَمُورْ وَلَقَدْ بَدَا حِقْدُ الضَّمَائِرِ وَالشُّرُورْ
وَالْفِكْرُ صَارَ مِنَ الْغَبَاوَةِ فِي قُصُورْ وَالْعِلْمُ مِنْ أَرْكَانِ مَسْجِدِهَا نَفَدْ
بَلَدٌ بِهِ خَلَفُ الصُّلَاحِ قَدْ فَسَدْ

قَدْ صَارَ فِكْرِي يَا أَخِي حِلْفَ التَّعَبْ وَمَكَثْتُ مَا بَيْنَ الضَّغَائِنِ وَالنَّصَبْ
وَرُزِقْتُ ابْنًا قَدْ تَشَوَّقَ لِلأَدَبْ طَبْعًا وَفِي أَرْضِ الصَّحَابَةِ قَدْ وُلِدْ
بَلَدٌ بِهِ خَلَفُ الصُّلَاحِ قَدْ فَسَدْ

لَمَّا رَأَيْتُ الْعِزَّ فِيهَا قَدْ انْقَضَى وَالْحُرَّ مُحْتَرِقًا بِنِيرَانِ الْغَضَا
فَارَقْتُهَا بِالْكُرْهِ مفتقدَ الرِّضَا وَرَحَلْتُ عَنْهَا بِالْعَشِيرَةِ وَالْوَلَدْ
بَلَدٌ بِهِ خَلَفُ الصُّلَاحِ قَدْ فَسَدْ

وَمَكَثْتُ فِي أَرْضِ التَّغَرُّبِ نَازِحًا وَقَدِ اخْتَصَرْتُ الْقَوْلَ نَحْوَكَ شَارِحًا
مَا حَلَّ بِي وَرَفَعْتُ صَوْتِي صَادِحًا يَا رَبَّنَا أَصْلِحْ بِفَضْلِكَ يَا صَمَدْ

فأوقع بقلبي لواعج التَّرَحْ، من عظم ما شَرَحْ. وقلت : يا حليف الكمدْ، أوَصلَتْ هاته المدينة المقدسة إلى هذا الحدْ. فقال: بلى والخلاقْ، وقد اختصرت، ولو أطنبت لما وسعنا الوقت وضاقت بطون الأوراقْ. وقد نزحت عنها منذ سنينْ، مصحوبا بعروسي وولدي ريحانة الفؤاد وقُرَّةَ الْعَيْنْ. وآليت أن لا أرجع إليها إلا بعد تغيير الحال وترديها بأردية محاسن الْمِنَحْ،

* وُرد هذا العجز في كتاب "الهيفاء وسراج الليل" (د.ت.ن،1978) مشوّشا لا يفي بمعنى وقد حاولنا إصلاحه من السياق.

وتبديل تاء الترح بفاء الفَرَحْ. فصارت عيني اليمنى لما قال سيحون، واليسرى جيحون. وقلت : لا تيأس من عود مجدها يا قرة العيون، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. ثم افترقنا وكلانا بلّ رداءه، من شدة بكائه. ثم رحلت عن الحاضره، وفارقت معالمها النّاضره. ولا زالت المكاتبة ما بيني وبين ذلك الحكيم القيرواني، حيث إنها بين المتنائين اتصال روحاني. ثم انقطعت عني مكاتيبه خمس سنوات، وتأسفت لعدم معرفة السبب ولله غيب السماوات. وقلت : لا شك أنه ارتحل إلى وطنه الميمون، أو دارت عليه رحى المنون.

* * *

المقامة القيروانية

حدّث الشّاكر بن الرّاضي قال : لمّا انقطعت عنّي أخبار أبي العبَرْ، لزمني الأرق مع محالفة الكَرَرْ، وتاقت نفسي إلى الاجتماع بجَنَابِهْ، لكي أجني أزهار حكمته وألتقط دُرَرَ آدابه، فعزمت على التّرحال وهو بيت قصيدي، وامتطيتُ مَتْنَ الرّتل الحديدي، قاصداً مدينةَ القَيْرَوَانْ، ذات المجْد والرّفعة والشّأنْ. وما زال الرَّتْلُ يُجِدُّ السّير كالطّائر الميْمُونْ، ودخانه يكتب على صفحات الجوّ وخلقنا لهم من مثْله ما يَرْكَبُونْ[1]. فأولُ ما لاح لي من معالمها البَديعَه، صومعتُها الرَّفيعَهْ. فتذكَّرْتُ أبياتا لَطيفَهْ، لشابّ من أبناء هاته المدينة الشّريفَهْ :

بِلاَدٌ بِهَا عِزِّي وغَايَةُ مَطْلَبي وَنَفْسِي لَهَا تَصْبُو عَلَى مُنْتَهَى الْبُعْدِ

(1) يس، الآيــة : 42.

فَحَصْبَاؤُهَا دُرٌّ وَمِسْكٌ تُرَابُهَا يَفُوحُ لِذِي دِينٍ إِلَى الرُّشْدِ
إِذَا نَظَرَتْ عَيْنِي مَعَالِمَ عِزِّهَا أَسَرَّ سُرُورَ الْمَرْءِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
بِلاَدٌ بِهَا شَعَرُ النَّبِي مُحَمَّدٍ وَصَاحِبُهُ الأَسْمَى يُبَلِّغُنِي قَصْدِي

فلمعتْ أنوارُ الشّعرات المحمّديهْ، وأبرقت الأسرارُ البلَويَّهْ، وفاح شذَى العلُوم السُّحْنُونيَّهْ، وتضوَّعَ عطْرُ التَّوْحيد عن الرَّوْضَةِ الزَّيْديَّهْ. ولمَّا دخلتها وجدتُ غَوْغَاءَ الخلف زَائدَهْ، والنَّميمة بينهم سَائدَهْ. لهم في الجدِّ قُصور وفي العبث بَرَاعَهْ، وقد اتَّخَذُوا ثلم الأعراض صنَاعَهْ، وبلغوا من الحقْد مُنْتَهَاهْ، إلاَّ مَنْ عَصَمَ اللّه. ولا زِلْتُ أجولُ في أطراف الْمَدِينَهْ، وأروِّحُ الفكْرَ في مشاهدة آثارها الثمينَهْ. إلى أنْ دفعني دافعُ الجوَلانْ، إلى مكانٍ نازلٍ عليه غضَبُ الرَّحْمَنْ. يُسَمَّى سوق السكَّاجينْ بل سوقُ النَّمَّامينْ. وفيه أقوام بحديث السوء يهمسون. واللّه يعلم ما يسرون وما يعلنون. وبينهم شاب يتجاوز الاثني عشر، شبيه بصديقي أبي العبر. فجلست أمام دكان أعجمي ظريف، أذكر اسم اللطيف. إلى أن قام ذلك الشاب من وسط نادي أولئك الأوغاد، وعندما ولى عنهم وجهه سلقوه بألسنة حداد. فاقتفيت أثره، لأستطلع خبره، ولما وصلت سلمت. ثم فهت وقلت : إني غريب الوطن، أيها الشاب الفطن. فقال : قدوم سعيد، فماذا تريد ؟ فقلت : أريد أن أسألك عن صديق لي يدعى أبا العبر، كنت اجتمعت وإياه بتونس فسحرني ببيانه ومحياه الأغر. ولما نأيت عنه صار الرسول ما بيني وبينه البريد. ثم انقطعت عني مكاتبته ولم أدر ما فعل به العلي المجيد. فهل عندك به معرفة أيها الشاب. أرشدك الله إلى الصواب. فقال :

لقد أذهبت مواسم أفراحي، وأقمت مأتم أتراحي، إن ذلك الصديق، هو والدي الشفيق، وقد نأى عن هذا العالم. وأوقعته أم قشعم في شراكها التي أوقعت فيه أباه آدم. وخلفني أقاسي المحن. من أبناء الوطن. وصرت بين أنياب الضغائن والعيش المنكود. ومكثت ما بين الأعداء كصالح في ثمود. وبعد أن توفي والديَّ بتونس رأيت أن الغربة، مذلة وكربة. فقدمت إلى وطني المصون. وأقمت خاضعا لمن حكمه بين الكاف والنون. وما كاد أن يتم كلامه إلا والدمع من عيني انهمل. لفراق ذلك المولى الأجل. ثم تأسيت بآية الرحمن، "كل من عليها فان"[1]. وقلت: رحم العليم، ذلك الحكيم. وحيث كنت شبل ذلك الأسد، وجب علي نصحك لكي ينزاح عنك الكمد. فقال قل يا صديق الوالد والسيد الرفيع، إني لقولك سميع مطيع. فقلت : ما لي أرى هؤلاء الأوباش، يرتمون على شعلة ذكائك كأنهم الفراش، يسعون في إطفائها، ويأبى الله إلا زيادة توقد نور سنائها، فانبذ هؤلاء الأوغاد نبذ النواة، وعليك بمطالعة صحف الأخبار ورقائق الأدبيات، وزد شغفا ببلدك وحب من فيها من بقية الأخيار، واترك مخالطة الأشرار. ولا تكن من أفعالهم وجلا، ثم أنشدت مرتجلا :

اسمع نصائح كالدرر ... يا بن الصديق أبا العبر
وخذ الرشاد من الذي ... أضناه حالك يا بشر
سلم لربك يا فتى ... وارض بما حكم القدر
وانبذ مخالطة الذي ... تزهو لمقدمه سقر

(1) الرحمان ، الآية : 26.

شيـخ الخديعة من غوى وبنـعمـة المـولى كـفـــر
واصبـر ولا تك جازعـا مـن أهـل بـادرة الغـــرر
واجعـل جميـع جموعهم أن عـدوا مـن جنس البقـر
واشكـــر لربـك حكمـه فهـو الرحيـم بمن شكـــر

ثم قلت : يافرع ذلك الأصل الكريم، وابن صديقي الحميم، إن السلامة وزوال البأس، في اجتناب الناس. وبالجملة فقد تبدلت الأفكار، في كل الأقطار، وتغيرت الضمائر، في الوقت الحاضر، وما جرنا لهذا النكد، إلا الحسد. فعليك يا ابن أخي بما يغنيك، واعمل بما يرضي الله ويرضيك. فلعلي أن أجدك في وقت آخر نابذ الرذيلة، ورجل الفضيلة. فقد وعدتني بالسمع والطاعة، وسأفارقك في هاته الساعة. فقال : سأعمل بنصحك الثمين، والله المعين. ثم قوضت رحالي، وعزمت على ارتحالي، إلى أرض البادية، وقدرة الله لي هادية.

* * *

المقامة البدوية

حدّث الشاكر بن الراضي قال : لما قوضت خيام الرحيل، من أرض الشعراء والصحابي الجليل. جعلت وجهتي ومرادي، أرض البوادي، ممتطيا متن فرس، في وقت الغلس، رفيقي أدبي، وصديقي كتبي، مفوضا الأمر في التسيار إلى القدرة مستنشقا نسمات السحر، إلى أن كشف الصبح اللثام. وهز تركي الفجر حبشي الظلام، فلاحت لي أحياء العرب، بارزة غواديها تحمل القرب، وأسراب الأنعام سارحة، في تلك البيداء الفائحة، وبيوت الشعر، آهلة بربات الحور، وعندما شاهدت ذلك المنظر الحسن، تذكرت بيتا لابن الحسن :

وقلت : ما أحسن البوادي، لكل بادي، وما أقبح بيت الحواضر، في الزمان الحاضر. إن أهل البوادي قوم نالوا الشرف، بابتعادهم عن بيت من الشعر أو بيت من الشعر الترف، وعدموا الجبن والطيش، بسبب خشونة العيش. وما كدت أتم هذا الكلام، إلا وشاب أقبل من خلفي محييا بالسلام. فرددت عليه، وقربت إليه. وقال: سمعت ما كنت تحدث به نفسك، فتعال في ضيافتي أنت وفرسك. فأجبته إلى ما أراد، وسرت معه إلى بيت رفيع العماد. فاقتبلني أهله بالترحاب، بعدما أطردوا الكلاب. وبعد ردحة من الزمن، أتوني باللبن، فسميت باسم الله وأكلت، ثم حمدته واسترحت. فبدأ رب البيت بالكلام، وقال : مرحبا بضيفي الهمام/ لقد سرني تشريفك هذا المقام، ولقد أجدت فيما وصفت من محاسن البوادي. يا غاية مرادي. ولكن ذلك النعيم، كان في الزمان القديم، حالة كون عرب الخيام، هم سادة الأنام، أرباب الشجاعة والسماحة، وأهل القريض والفصاحة. حلفاء السيوف، ويقرون الضيوف، أعفاء أطهار، يجيرون من بهم استجار، مصاقيع الخطب، ولهم أسواق للأدب. أما الآن فصار تبرهم خبثا، وجدهم عبثا، ملازمون الحرابه، وعليهم من الجهل كآبه، وطالعهم آض إلى النحوس، وامتلأت بهم الحبوس، ولو رأيت يا نبراس الفضلاء، ما حل بالسبيخة والعلاء، من فقد الدين، في هذين المكانين، وجلب الهموم، بتزوير الرسوم، لرأيت الأرض ضاجرة، من الأيمان الفاجرة. أما السالفون من أهل البداوة الصالحين، فكانوا بحبل الدين متمسكين، وعلى عزة النفس محافظين، وبالتخوشن في المعيشة مشهورين، حيث إن التخوشن مع

الإصلاح، لمن الفلاح. أما هؤلاء الأقوام، فقد اشتهروا بالتوحش مع تشويه دين الإسلام. فأهل البوادي الآن صاروا بفسادهم مع التوحش في تلف، وأهل الحواضر أهلكهم الترف. وفيما قصه الله علينا من أحوال المترفين، لأكبر عبرة حيث قال في محكم الكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون ˝ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين˝[1] ˝حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لاتجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون˝[2]، ˝ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون˝[3]. فقد تكبروا وافتخروا، حتى تأخروا، وأوقعهم الإسراف، في مهاوي الإتلاف. وتعودوا على الراحة وعامل الترف عليهم تغلب، وقد قال رسولهم: ˝تخوشنوا وتمعددوا وامشوا حفاة فإن الزمان له قلب˝. وبالجملة فقد وقع الجميع من سوء الفعل في هاوية، لافرق بين سكان الحواضر وأهل البادية. نعم بقي منهم قوم عين الله ترعاهم، وقليل ما هم. فيا ليت شعري متى تهب على الجميع نسمات الرحمة والقبول، ثم أنشد يقول :

أرى غيرنا في الارتقا بلغ السما وما أسست أسلافنا قد تهدما
أرى غيرنا في حلة المجد رافلا ونحن حيارى والكمال تحطما
فالشر في أهل البوادي قد نما والجهل في كل الحواضر خيما
سلكنا طريقا للجهالة حالكا وملنا لما في الدين والشرع حرما
ألم يأتنا الذكر الحكيم مبينا به سعد الأقوام والعز قد نما

(1) القصص ، الآية : 58.
(2) المؤمنون ، الآية : 64.
(3) غافر ، الآية :75.

عجيبا كتاب الله يا صاح بيننا ونحن من الإذلال في عيلم طمـا
كتاب به قـامت معالم ديننـا وقد رفع الجهال من طرق العمـا
فلم ننظر الأوطان نظرة آسف ولم نجعل الأقلام للمجد سلمـا
قصارى كبار القوم أن يتنعموا بلبس ومأكول وقصـر مفخمـا
كسالى وما أبدوا لنا نصح ناصح وهذا فساد العين قطعا تجسمـا
فهذي خلا عات عليها تعودوا وقد تركوا الأقوام للغير مطعمـا
فيا ربنا أصلح بفضلك جمعنا وهب لنـا يـا رب الخلائق أنعمـا

وبعد إتمام أشعاره، وبروز بنات أفكاره، قلت : يا معدن الحكمة وسياج الكرام، أفهل يعود مجد الإسلام، وتزهو لهم الأيام ؟ أرشدني أرشدك الله، فقد بلغ بي الحزن منتهاه. فقال : بلى سيصير العز لهم راجعا، ولا أحجر واسعا. فكل إلى أصله عائد، ورحمة الله واسعة لكل قاصد. فكن مرتاح الفكر والجنان، فسيرحم الله أمة القرآن، أو لم تقرأ ما خاطب الله به خير المرسلين، "وكان حقا علينا نصر المؤمنين"[1]. فجرت دمعتي، من عظم فرحتي، وقلت يا واحد الفضل، وصاحب القول الفصل، لقد كشفت عن لبي الغيوم، فيما أبنت من إزالة الهموم، عن أمة النبي، يا غاية مطلبي. وقد حمدت السرى، وإن ما سمعته من أدبك ورشادك وحكمتك لمن أعظم القرى. ثم قمت إلى المضجع، بعدما حصلت على الترياق الأنجع. ومن الغد استأذنت الحكيم البدوي، في السفر حيث صرت من زلال حكمته مرتوي. فودعني وقال صاحبتك السلامة، في الضعن والإقامة...فرحلت عن تلك البقاع، وقلبي بفرقة ذلك الحكيم ملتاع، وأفكاري بإرشاداته محروسة، قاصدا بلد سوسة.

* * *

(1) الروم، الآيـة : 74.

نصائح وعبر

(نشرت بجريدة "الصواب" عدد 42 سنة 1322هـ)

حدث أبو العبر، وحليف السمر، قال : خرجت في ليلة صحا جوها، وزهت نجومها، منفردا بنفسي، وذلك غاية أنسي، لأني قد ألفت الانفراد، منذ غاب عني صديق شمامة الأنس وروح الوداد. فانتشرت بطرقات البلاد وجلت، إلى أن تعبت. فاخترت موقعا فسيح، وجلست لأستريح، فنظرت نظرة في النجوم، وأجلت فكرتي في عظمة الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. وقلت سبحانك يا من أمرتنا بالتبصر في بدائع الكائنات، وبالنظر في عجائب الأرض والسماوات. أمرتنا بالعمل فتكاسلنا، وبالاعتصام بحبلك المتين فما اعتصمنا، وبعمران هذا الكون البديع فدمرنا وخربنا، وبالأخوة فتحاقدنا وتباغضنا، وباتباع الكتاب والسنة فخالفنا. أسلافنا تقدموا وتأخرنا. كم رأينا العبر فلم نعتبر، ولم نتدبر في أمر نافع ولم نتفكر. ثم أطرقت رأسي، وخاطبت نفسي. فقلت يا نفسي لا تيأسي، من هذا الحال المسي. فقد دب في الأمة دبيب الشعور، وسترجع إلى حياة طيبة ولله عاقبة الأمور. ولكنني أسأل الملك العلام، أن يحييني حتى أرى مجد الإسلام. وبينما أنا على هذه الحال، وتمني حسن المآل، إذ لاح لي شخص من بعيد، فأمعنت فيه النظر فإذا هو صديقي صاحب الفعل الحميد، والرأي السديد. أتى بعد ما قضى أشغاله بأرض البوادي، وسيماء السفر على وجهه بادي. ولما حل بإزائي، قلت : قد انقضى التنائي، يا غاية منائي. فلله الحمد على منة الاجتماع، وطي بساط الانقطاع. وبعدما سلمنا

وجلسنا. قال لي : أيها الصديق الحميم، وصاحب الود المستقيم، قد بلغني أنك صرت حليف الوحدة، في هاته المدة. فقلت : نعم لأني وجدت السلامة في الانفراد، حيث أن المخالطة مدعاة الضرر والأنكاد. فلم ألاق الناس إلا لتلقي مسألة علمية أو إصلاح حال، عملا بقول الشاعر المفضال :

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلا لكسب العلم أو إصلاح حال

فقد تغيرت من الناس الطباع، وحل الشقاق والنزاع، وضاع منهم الوفاء، وقل أن تجد صاحبا ذا صدق وصفاء. فلا ترجى السلامة منهم، إلا بالبعد عنهم. فقال لي ذاك الصديق، وصاحب العهد الوثيق، حيث كان الأمر كما ذكرت، وحال الناس كما شرحت، فعظني بحكم أتخذها عدة في حياتي، وأتركها لمن يخلفني بعد مماتي. فقلت له : ألق سمعك لما أمليه عليك، وكن محافظا على وصيتي محافظتك على نفسك التي بين جنبيك. فقال: سأعمل بوصيتك ما دمت في هذا الوجود، بإعانة الملك المعبود. فقلت : اعلم أيها الصديق، ومن حبل وداده وثيق، أن من قول بعض الحكماء : "رب أخ لم تلده أمك"، ومصداقا لقول الحكيم فأنا ذلك الأخ أريدك للخير وأريد الخير لك، اعمل بوصايا والديك، فإنهما لا يريدان إلا إصلاحك، وربحك وفلاحك، فقد قرن الله عبادته بطاعتهما حيث قال " وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه. وبالوالدين إحسانا"[1] فبرهما يوجب رضاء الله. وبالعكس كن لهما مطيعا، ولأمرهما سميعا. وفر من مخالطة الأشرار، فرارك من النار، لأن الانسان لا يرى

(1) الإسراء ، الآيــة : 23.

منهم إلا تحسين القبيح، وتقبيح المليح. يجلبون الغافل إلى مجالسهم، ويسعون في هلاكه وهلاك أنفسهم. واهجر الخمرة الداعية لكل ذميم، واعلم بأن خاءها جيم. ولا تتأثر من نميمة الأنجاس، المطبوعين على ارتكاب النقص والوقوع في الأرجاس. وقم بواجب الفرض، وطهر لسانك من القرض. وكن حليما لمن أساء إليك، واصفح عمن اعتدى عليك.واشفق على الفقراء والمساكين، وتصدق عليهم بقدر الطاقة فإن الله لا يضيع أجر المتصدقين. واقتصد في معيشتك، ولا تجعل البخل ريشتك. وتواضع مع الفقراء، ولا تتصف بالكبرياء. ولا تخفض جناح الذل لأحد، إلا الواحد الصمد.

فلا تطرق لغير الله رأسا ولا تحن لغير الله ظهرا

فمن أعز نفسه زان، ومن أذلها هان. وعظم العلماء أصحاب العمل، وابتعد عن البخل والكسل، واكسب الفلس وحاسب من بطل. وإن وجدت متكبرا فقابله بأكثر مما فيه، فلا شيء ألذ من مقابلة التيه بالتيه. باعد عن الرذيل ولا تخفض معه في الحديث، لأنه أقرب من عدوى الخبيث. وإن خفت من الأعداء مكرا، فلذ بحمى الرسول سرا وجهرا. وعليك بصدق الحديث ففيه السلامة، وإياك والكذب فإنه يعقب الندامة. وشاور أصحاب النهي إذا هممت بشيء، ولا تستبد برأيك فإنه مهلكة كل حي. وأحسن إلى الأخيار بقلبك ولسانك، لتكسب ودهم ويروق زمانك.لأن من اكتسب ود العظماء، لايضره غضب اللؤماء. وعليك بمطالعة كتب الآداب، فإنها تحلية أولي الألباب. واجتهد في تعلم العلوم الدينية، واكتسب فوائد المعارف العصرية. واقصد بذلك نفع الوطن. وتلك شنشنة

أهل الفطن. وارفع عن فكرك حجب الوهم، ولا تعرض عن العلوم إن عدمت الفهم. فما أهلك الملل إلا الملل. وعليك بمطالعة الجرائد والمجلات، وخذ منها الحكم وانبذ الفاسد من الاعتقادات، واغبط أهل الأفكار العالية فإن الغبطة من المباحات. وإياك والحسد، الداعي إلى سلب النعمة وجلب النكد. واعلم أنه لأساس الإيمان أعظم هادم، وهو أول معصية وقعت في ملكوت السماوات حين حسد ابليس آدم. وتجنب التملق والطمع. واخدم الخدم التي عليها مدار الإفادة، بحيث تكون زارعا أو تاجرا أو صانعا لأن في الثلاثة السعادة. وكن حرا بعيدا عن أبواب الإمارة، وجاهد النفس الأمارة. وسكن نفسك عندما يعتريها الغضب، واستعمل الحزم في دفع الشدة بعد تفويض أمرك إلى الرب. وإن ظلمك أحد ودعيت إلى الصلح فصالح، واعمل بنصيحة صديقك صالح. وقل بقلب الإخلاص ولسان الصواب، "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"[1].

* * *

نائم ويقظان

حدث أبو العبر قال : سنح لأفكاري بأن أطوف بأطراف الديار، وأجول بشواسع الأقطار.عملا بقول العادل في يوم العرض، "أفلم يسيروا في الأرض"[2]. فخرجت والحزم حليفي، والجد أليفي. ممتطيا متن البخار، تارة بالغبراء وطورا بالبحار. إلى أن حللت بمملكة (غربية) قد حط العز بها رحاله، وضرب المجد بأكنافها سرادقاته. فطفقت أجول في أنحائها، وأردد الطرف في بديع محاسنها وغرائب مصنوعاتها، ومدهشات

(1) آل عمران ، الآيــة : 8.
(2) يوسف ، الآيــة : 109.

مخترعاتها. تظللني في السير أشجارها الباسقة وتحييني بأكفها الزبرجدية أدفع إليها (أدرجيني) وتتحفني (بأكسجينها). وشاهدت من أحوال ذلك القطر الناظر، تدل على ترقيهم في الزمن الحاضر. أسواق العلوم عندهم نافقة، ومطية الحرف في ميدان المعامل سابقة، والدهر لهم مساعد والدنيا لهم عاشقة. وما زلت أجول، أشاهد من البدائع ما لا تصفه العقول. إلى أن وصلت إلى نهج (ميناها) البديع الصنع، والمحكم في الوضع. فجعلت أخطو خطوات شخص يفتكر، أو حكيم يعتبر. فوجدت بحرها يترجم عن أسباب التقدم. والمنشآت على سطح الماء تموج، قاهرة بقوة آلاتها سلطان الموج.ووجدت هناك الجمع الغفير، يتنعمون بذلك المنظر النضير. ليس لهم تعب في الفكر ولا حلت بضمائرهم الأوجاع، لهم من الطبع ضخامة قضى بها ناموس الاختراع. وبعد التأمل رأيت النفس في إعجاب، تريد الوقوف على حقيقة الأسباب. فقلت لا تعجبي أيتها النفس فبالعلوم تعمر الأمصار، وتتنور الأفكار، وتترقى الأمم إلى معارج العز والكمال، وهكذا المجد بالجد ينال. ثم لويت عنان الرجوع، والله يعلم بما تحت الضلوع. وبينما أنا في حالة السير إذ وجدت شخصا بناحية (شرق) الطريق، ملقى على الأرض وهو في نومته غريق. وقد رفع الريح الرداء عن منكبيه، باسطا من شدة التعب في نومته ذراعيه. وبقربه رجل من وجهاء تلك البلاد يتأمل في سوء حالته، وإغراقه في هومته. فتقدمت إليه وبعدما حييته قلت له: يا ساكن (الغرب) أريد أن أسأل جنابك عن حالة هذا المسكين النائم على التراب، نومة الحزن والاكتئاب. أظنه بعيد المنبت نائي الدار صار من التعب طريحا، ومن سهام الأكدار جريحا.

فأجابني : إن هذا الشخص (شرقي) الوطن غريب الدار، قدم منذ أيام إلى هاته البلاد مصحوبا بدف ومزمار. يجول بهما في الطرقات، ونحن نشاهد من أفعاله حركات مضحكات. طالما رأيته يمر على إدارة المعارف فننظر له أنا والتلامذة بعين الاحتقار وأقول لهم إن الجاهل بالعلوم، قد يصل إلى درجة هذا المجنون، ويرمى به إلى درك الانحطاط والهون، وفي المثل : الجنون فنون. فهذا الشخص لأقوى اعتبار، لأهل البصائر والأبصار. ومن قبل كان أتانا رجل من جنسه له ثروة عظيمة، وأملاك جسيمة. غير أني رأيته يصرف أمواله في الخمور، ومحلات الخنا والفجور. ليس له بالمعارف خبر ولا إلمام، يسرح ويمرح ويأكل كما تأكل الأنعام. فلا فرق عندي بين هذا النائم وذاك، فكلاهما يزعم أنه في نعيم وهو في درك الهلاك. فالأول حليف الحانة وسمير الخمار، وهذا أليف الدف والمزمار. وهو الآن من شدة الضرب والرقص نام، فهذا ملخص ترجمة هذا النائم أيها الهمام. وقد أنبئت وأنه يوجد في وطنه فريق مولع بحب البطالة والكسل، قول باللسان بعيد عن العمل. أفكارهم عن المصالح مقضية، وقسمتهم ثلاثية. قسم السلافة وقسم الطبول، والقسم الرفيع منهم في زوايا الخمول. وقد تصفحت تاريخ أسلاف هذا الجنس فقضيت بالعجب العجاب لما كانوا عليه من رفعة الأفكار، وبسط العدل والمساواة في الحقوق لا فرق بين الحاكم والمحكوم من أهل دينهم وأصحاب الأديان الأخرى فنوروا الأفكار، وعمروا الأقطار، وصارت الدنيا مبتهجة بأفعالهم الجليلة، وعدلهم الباهر. وهذا ما يشهد به الحكماء البعداء عن التعصب من أهل أوروبا، ثم جاء الخلف ففصموا عروة الاتحاد وقطعوا حبل الاعتصام فانقلب عزهم

ذلا. ونعيمهم إلى شقاء. الضعيف يداس تحت أقدامهم، والمسكين العاجز لا يعينونه بفواضل أموالهم. إذا طلبت منهم الإعانة على مشروع خيري عبسوا. وإذا طرق أسماعهم افتتاح ملهى خفوا إليه وأسرعوا. وإن تدعهم إلى هدى لا يسمعوا. لا تزجرهم العبر، ولا تؤثر فيهم صيحات النذر. وهذا الذي ذكرت لك أيها الشرقي قليل من كثير وقد رأيت في هاته الأيام نهضة علمية، وجماهير من علماء هذا الجنس قاموا يرشدون أبناء ملتهم فلهم الشكر من الإنسانية، ثم ودعني هذا الحكيم الأروباوي ومضى، وقد أشعل في فؤادي جمر الغضا. وبلغ بي الأسف منتهاه، وقلت : يا هل ترى هل لهذا النائم من انتباه. فتدفعه موجبات دينه إلى حرز حريز، "وما ذلك على الله بعزيز"[1] ثم عزمت على عودتي، إلى مركز منبتي. حيث علمتني دروس الزمان، حال النائم وتصرف اليقضان.

(1) فاطر، الآيـة : 8.

أو مولد الأدب القصصي بتونس

صالح سويسي والمغامرة النثرية

بدأ صالح سويسي حياته الأدبية بتحرير المقالات والخواطر الأدبية ووجد في الصحافة الأدبية الناشئة مجالا لنشرها وترويجها، ثم استهوته كتابة المقامات وأدب الرحلات فكتب فيهما محاولات. وأخذ يتأثر شيئا فشيئا بنماذج الأدب القصصي التي كان يطالعها في الصحف والمجلات الشرقية، ونلاحظ بوادر ذلك التأثر في أسلوب مقاماته ومواضيعها، من ذلك "المقامة البدوية"، و "نصائح وعبر"، و "نائم ويقظان" التي ألفها حوالي سنة 1899.

ولا شك أن صالح سويسي قد أعجب بمحاولات رواد الأدب القصصي العربي من أمثال سليم البستاني وجرجي زيدان وفرح أنطون ونقولا حداد وغيرهم. "وهي روايات كتبت للإفادة لا للفن، وسيقت للوعظ والتسلية لا حبا لهذا اللون الطريف من ألوان الأدب، والشخصيات فيها نماذج أكثر مما هي أشخاص، ودمى أكثر مما هي حية. والأسلوب هو الأسلوب الصحفي البسيط الذي يخلو من الروعة (...) والكاتب يهمه في قصصه إيراد التفاصيل والمواعظ أكثر مما يهمه تحليل النفسيات..." (36) ، فإذا هو يكتشف بفطرته أن ما كان يحرره من مقالات صالح لأن يسبك في قالب قصصي، وأنه قادر على مجاراة المحاولات القصصية المشرقية، فهي تتفق مع غرضه من الكتابة الذي يعرفه بقوله "إيقاظ بني وطني

خصوصا والمسلمين عموما إلى السير على ما كان عليه السلف الصالح وسلوك الناشئة سبيل الرشاد".

ولا شك أن لازدهار الصحافة التونسية، بعد قرار رفع الضمان المالي عن الصحف (سنة 1904)، وما تبعه من تنشيط الحركة الأدبية والفكرية، دورا في إقدام صالح سويسي على الكتابة القصصية. فقد تعددت الصحف وتنوعت اتجاهاتها، وفتحت صفحاتها لأدباء العصر. وإن عجت الجرائد والمجلات بالقصائد الشعرية والمقالات الاجتماعية والخواطر الإصلاحية، فإنها لم تجد بعد من تجرأ على فتح باب الأدب القصصي فيها، خلافا لما كانت عليه الصحف بالمشرق حيث أفردت بعضها بابا خاصا للقصة، مثل (الجنان) لبطرس البستاني، و (المقتطف) و(الهلال) التي اشتهرت بسلسلتها للقصة التاريخية لجرجي زيدان. بل إن بعض المجلات كادت تختص بمجملها في الفن القصصي، منها (سلسلة الفكاهات) لنخلة قلفاط، و(ديوان الفكاهة) لسليم شحادة وسليم طراد، و(منتخبات الروايات) لإسكندر كركور، و(سلسلة الروايات) لمحمد خضر وبشير حلبي...

ونعتقد أن ما حققه صالح سويسي من نجاح في مغامرة "الشعر العصري" سنة 1900 لعب دورا حافزا لحثه على اقتحام المغامرة القصصية، فالمجال بكر والصحف على استعداد لتلقف كل جديد وطريف، والأنموذج القصصي السائد بالمشرق يعطيه فرصة لمحاولة تجديد خطابه الوعظي.

وبذلك "استطاع صالح سويسي بقوة عاطفته المتقدمة في سبيل نزعة فكرية هي نزعة الإصلاح الديني، أن ينقل نفسه من ميدان الشعر إلى النثر الفني، بل أن يتهجم على فتح باب من أبواب النثر الفني لم يتجرأ قلم قبله على محاولة فتحه، هو باب الرواية. إذ نوهت الصحافة سنة 1324هـ/1906م بأن شاعر القيروان قد ألف رواية انتقادية سماها "الهيفاء وسراج الليل"، فكانت أول رواية ظهرت في تاريخ الأدب العربي بتونس، وهي وإن كانت مقامة على هيكل القصة البسيطة، ضعيفة العقدة الروائية، إلا أن أوليتها من جهة، وابتناءها على فكرة الإصلاح من جهة أخرى، يمكن لها منزلة مهمة من تاريخ الفكر ونهضة الأدب" (37)

الرواية المبتورة

شرعت مجلة (خير الدين) لمحمد الجعايبي في نشر رواية "الهيفاء وسراج الليل" بداية من عددها السادس الصادر في غرة رجب 1324هـ/1906م. وقدمت لها المجلة بكلمة جاء فيها :"قد ألف صديقنا المفضال السيد صالح سويسي الشريف القيرواني رواية تحت العنوان أعلاه، أدبية انتقادية اجتماعية، وقد عهد إلينا بنشرها تباعا على صفحات المجلة. ومن حيث أن الرواية المذكورة أول رواية ألفت بالمملكة التونسية فإن صديقنا المومأ إليه يلتمس من حملة الأقلام وزعماء الأدب أن ينظروا إليها بعين الرضى التي هي عن كل عيب كليلة..."

ونشر قسم ثان من الرواية في العدد السابع (غرة

شعبان 1324هـ/1906م)، ثم منعت مجلة (خير الدين) عن الصدور، فتوقف نشر الرواية ولم تكتمل...

وقد رأى بعض النقاد، في إشارة لنص تقديم الرواية، "أن الكاتب نفسه قد أدرك أنه لم يتقن فنياته القصصية، وقصر عن تحقيق ما حققه القصاصون الشرقيون في إنتاجهم الحديث فعبر عن تخوفه من نشر هذا الأثر القصصي..." (38)

ولا يمكن، في رأيي، أن نتفق مع هذا الموقف الذي يقيّم الرواية من منظور ما توصل إليه الأدب القصصي اليوم، وذلك لسببين : أولهما أن صالح سويسي لم يكن يشك في قدرته على مجاراة فنيات القصة كما استوعبها من خلال الأنموذج السائد في المشرق العربي آنذاك. وأما السبب الثاني، فهو أن ما حققه القصاصون الشرقيون في مصر ولبنان وسوريا في تلك الفترة ليس أرقى مما كتبه صالح سويسي. ودليلنا على ذلك ما كتبه يحيى حقي متحدثا عن رواية "عذراء دنشواي" لمحمود طه حقي التي تزامن صدورها مع رواية "الهيفاء وسراج الليل" (1906). يقول يحيى حقي: "...وهي أول رواية مصرية مؤلفة تباع منها آلاف مؤلفة من النسخ فور صدورها (...) فالروايات التي بين أيدي عامة القراء في عهدها قليلة جدا، وأغلبها مترجم يقصد به التسلية، وبعضها مؤلف، ولكن لا يتصل بوجدان الشعب، فهي إما روايات تاريخية عن عهود مضت قصدها الإشادة بالأمجاد، وإما روايات تهدف إلى الموعظة وتقام على سيل من الحكم والأمثال..." (39)

وإن كان لصالح سويسي أن يبدي تخوفا من نشر روايته، فإن ذلك لا يكون إلا "...من حيث أن الرواية المذكورة أول رواية ألفت بالمملكة التونسية..."، أي من موقف القارئ تجاه هذه التجربة الجديدة بقلم تونسي بعد أن بدأ يستسيغ هذا اللون الأدبي بأقلام مشرقية ويقبل عليه.

مر حوالي عقد ونصف قبل أن يحاول صالح سويسي إعادة نشر روايته وتقديمها إلى القراء كاملة. وقد ظهرت في الأثناء بعض المحاولات القصصية التونسية، تأليفا وترجمة واقتباسا، مثل رواية "فكاهة في مجلس قضاء" بقلم محمد مناشو، نشرت بجريدة (مرشد الأمة) سنة 1910، ورواية "الساحرة التونسية" التي ألفها الصادق الرزقي ونشرها على حسابه، وغيرهما...وفي الأثناء أيضا، نسفت الحرب العالمية الأولى الامبراطورية العثمانية وما كان يرتبط بها من آمال جماعة الإصلاح في تحقيق وحدة العالم الإسلامي، وبالمقابل، تقوت فيهم النزعة الوطنية الصادقة ونشأت الأحزاب السياسية المنظمة، وأصبحت المطالبة بالإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وبالحريات العامة واضحة المعالم.

ولاشك أن تلك التغيرات السياسية والاجتماعية قد أثرت

في صالح سويسي فطورت فكره وغيرت بعض مواقفه. فإن كان سنة 1906 مقتنعا بوحدة العالم الإسلامي تاريخا ومصيرا، ومؤمنا بضرورة تكافل الأمة الإسلامية وتكاتفها لإصلاح شأنها وتحقيق نهضتها في ظل الحركة الإصلاحية للإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومن والاهما في مختلف الأمصار، فقد تطورت نظرته إلى تلك الأمور بتطور المطالبة الوطنية، فأصبح رجل المواطنة الصادقة، يحمل لبلاده وأبنائها خير ما يحمله قلبه النابض، ولا ينسى في ذلك ولاءه للعالم الإسلامي، فيجعل من وطنه مركز إشعاع علمي، ومن علماء بلاده المستنيرين نبراسا لهداية من رام إصلاح حاله من بني الأمة الإسلامية.

ولا شك أيضا أن هذا التطور الفكري هو الذي حث المؤلف على تحوير روايته قبل إعادة نشرها سنة 1921 في جريدة (القيروان)،فعوض الشيخ محمد رشيد الشامي (الذي كان يرمز به إلى الشيخ رشيد رضا) بالشيخ محمد النخلي، وعوض مصر بالقيروان. كما استفاد من تجربته السابقة في نشر الرواية، فعمد إلى تحويرات لتحسين النص والأسلوب، مثل استبدال بعض العبارات وحذف بعض الفقرات غير الموفقة، فهو لم يعد المؤلف القصصي الوحيد بتونس.

ابتدأ نشر الرواية في صبغتها الجديدة في العدد 15 (30 جانفي 1921) من جريدة (القيروان)، وتولى المؤلف تقديمها بنفسه إلى القراء، مؤكدا على غرضها الحكمي والتعليمي، حيث قال: "هدية أدبية إلى أبناء المكاتب العلمية حكاية الهيفاء

وسراج الليل - أقدم هاته الحكاية الأدبية والعبرة الحكمية إلى زهرات العصر الحاضر، ورجال المستقبل الباهر، أبناء المكاتب العلمية، من الشبيبة التونسية وأرجو من ذكائهم ولطفهم أن يمعنوا النظر فيها، ويتدبروا معانيها. فالعاقل من أمعن النظر، وتدبر واعتبر".

وقد اعتمد بعض الناقدين على تقديم المؤلف لروايته على أنها "حكاية" للتشكيك في وعيه بمفهوم الكتابة القصصية، واعتبر ذلك تراجعا منه. والرأي أن اللفظين في تلك المرحلة التي لم تشهد بعد حركة نقدية تنظيرية تحدد المفاهيم، يشيران إلى نفس المعنى. فقد نشرت روايات مترجمة بتسمية "ألهية"، واستعملت جريدة (الرائد) كلمة "حكاية" في معنى الرواية.

ولعل صالح سويسي قد أراد باختياره كلمة "حكاية" أن يقترب أكثر من معنى القصة وأن يتلافى معنى "الرواية المسرحية" الذي بدأ ينتشر مع انتشار المسرح، وهو ما زال متداولا عند العامة إلى اليوم.

تواصل نشر الرواية تباعا في جريدة (القيروان)، بدون انتظام، إذ نجدها في العددين 16 (12 فيفري 1921)، و17 (16 فيفري 1921)، ثم تختفي لتستأنف من جديد في العدد 20 (19 مارس 1921) ثم تنقطع من جديد... ولما كانت المجموعة المتوفرة بالمكتبة الوطنية من تلك الجريدة غير مكتملة، ولم نعثر على الرواية في ما هو موجود منها من جهة، واعتبارا

لاكتشاف جزء مخطوط من الرواية لم ينشر من قبل، عثر عليه بعد وفاة المؤلف من جهة ثانية، فإن السؤال يبقى مطروحا : هل أتم المؤلف نشر الرواية في بعض الأعداد المفقودة من جريدة (القيروان)، أم أنه ـ كما ذهب إلى ذلك محمد صالح الجابري ـ عجز عن إيجاد خاتمة لها؟ (40)

النقطة الصفر في تاريخ الأدب القصصي التونسي

يختلف المهتمون بتاريخ الأدب القصصي بتونس في تحديد بدايته. فمنهم من يرى أن المحاولات الأولى، إلى نهاية الثلاثينيات، فاشلة، وهي بذلك غير ذات ذكر. ومنهم من يأخذ بعين الاعتبار تلك المحاولات الأولى، على علاتها، لما قامت به من إسهام في تهيئة أذهان القراء لتقبل ذلك اللون الأدبي الجديد. ومن هؤلاء محمد صالح الجابري وعزالدين المدني وغيرهم من أعضاء (نادي القصة) الذين حاولوا البحث عن جذور الأدب القصصي التونسي وتقصي أطوار نشأته عبر الصحف والمجلات الصادرة في مطلع القرن العشرين. فلهم كان الفضل في الكشف عن عديد الأعمال التي كادت تتلف بتلف الصحف التي نشرت بها. فأعادوا نشرها بمجلة (قصص) التي يصدرها ناديهم، وخصوها بالدرس والبحث. فنشرت رواية "الهيفاء وسراج الليل" في العدد 20 (جانفي 1968) من المجلة.

ويمكن أن نعتبر رواية "الهيفاء وسراج الليل" النقطة الصفر التي منها بدأ تاريخ الأدب القصصي بتونس. فهي ،كما يؤكده الشيخ الفاضل بن عاشور، لم تسبق بمحاولة في

الكتابة القصصية باللغة العربية، ولم تتبعها محاولة أخرى قبل مضي بضع سنين.

وبعد مضي عقد على نشر الرواية في مجلة (قصص) عُثر على جزء مخطوط منها لم ينشر من قبل، فكان ذلك حافزا لإعادة نشرها في كتاب مستقل، مع مقامات وقصص أخرى، أصدرته الدار التونسية للنشر سنة 1978. وجاء في تقديم هذا الكتاب (مقدمة غير ممضاة): " لقد وجدنا شطرا من هذه الرواية في كراسة للمرحوم صالح سويسي الشريف تحتوي على "مقامات تونسية" وأشعار. قلنا وجدنا صفحات بخط يد الفقيد بلا عنوان تبدأ هكذا "بأخشاب التوابيت وأبواب الزوايا..." وعند قراءتها اكتشفنا أنها جزء من رواية " الهيفاء وسراج الليل" التي وقع نشر جزء منها في مجلة قصص (العدد 1، جانفي 1968)، وعند مقارنة المخطوط بالمطبوع وجدنا أن هناك نقصا يكون هوة بين النصين فحاولنا بأقل تصرف ممكن، التوفيق بين القسمين وذلك بزيادة فقرة تضفي على السياق نوعا من المنطقية..."

ندرك من تلك المقدمة أن الدار التونسية للنشر حاولت إخراج الرواية في أكمل صورة متاحة، وألفت بين عناصر أربعة ووفقت في ذلك إلى حد ما. إلا أن القارئ الذي لا يعرف مختلف تلك العناصر لا يمكنه أن يميز بين ما نشر في مجلة (خير الدين) وما أخذ عن جريدة (القيروان) وقد تصرف فيه الناشر بعض الشيء، وما أضيف للربط المنطقي، وما وجد مخطوطا ونشر لأول مرة.

أبعاد الرواية ومواضيعها

تذكرنا رواية "الهيفاء وسراج الليل"، في ما رسمه لها المؤلف من أبعاد تعليمية، برواية "أميل" (L'Emile) للأديب المفكر جون جاك روسو. ويمكننا باعتماد هذا الاستنتاج تصنيفها ضمن "الرواية البيداغوجية".

كما أن الرواية، في كثير من جوانبها، توحي لنا بأنها سيرة ذاتية للمؤلف، حقق من خلالها ما تمناه لنفسه وحالت الظروف دون إدراكه. وقد ابتنى موضوعها على نصرة الدعوة الإسلامية ومؤازرة الحركة الإصلاحية، وجعل محورها الأساسي المنهج الذي خطه الشيخ محمد عبده، وهو أن إصلاح الأمة وتجديدها لا يكونان إلا من طريق التعليم والتربية أولا، ومن طريق السياسة آخرا، مما كان أصل الخلاف بينه وبين الشيخ جمال الدين الأفغاني.

الرواية غنية بالمعاني الإصلاحية، متعددة المرامي والمواضيع إلى حد العجز عن إحصائها جميعا لتشابكها وتداخلها و"الحديث ذو شجون..." فلا تخلو صفحة من نقد أو حكمة أو موعظة، يذكر المؤلف بمناسبتها بما جاء به الدين، مستشهدا بآيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة (وقد أحصينا 22 آية من القرآن الكريم و5 أحاديث نبوية)، ونحن لا نعد ذلك شططا أو مغالاة وتزمتا، بل أن ذلك يندرج في سياق التوجه العام للرواية وهو الدعوة إلى اعتماد تلك الأصول في إصلاح الأمة الإسلامية، وفي الحياة العامة لكل مسلم "حي" (حسب تعبير المؤلف). ومن أهم المواضيع التي جاءت في الرواية نذكر ما يلي :

٦. مواصفات المرأة المسلمة

كان موضوع المرأة المسلمة حديث الساعة زمن نشر الرواية لأول مرة. فقد كان محل جدل ونقاش أججهما رواج كتابي قاسم أمين "تحرير المرأة"، و"المرأة الجديدة"، وكذلك إقبال بعض العائلات الموسرة على ترسيم بناتهن بمدرسة نهج الباشا التي تأسست سنة 1900، وهي أول مدرسة للفتيات المسلمات. وفي ذات العددين اللذين نشرت فيهما الرواية من مجلة (خير الدين)، نشر محمد الجعايبي - صاحب المجلة - آراء ومواقف في الموضوع تحت عنوان "تعليم المرأة"، مما جاء فيها: "نحن لا نكره تعليم المرأة بل نراه شرطا لازما لأمة تنشد الرقي وتتحفز إلى نهضة صادقة، ولكننا كما قلنا في برنامج جريدتنا، نريد أن نعلم بناتنا طبق آدابنا وأخلاقنا، وبلغتنا التي هي لساننا الرسمي والواسطة العظمى لفهم ديننا الذي يحتم على المرأة المسلمة أن تتشبع بمبادئه العالية (...) وإن لم تكن كذلك نكون قد خسرنا ديننا ودنيانا في آن واحد. إذ ثبت بالاستقراء أن المرأة التي لا وازع يزعها ولا دين يعصمها تكون بلاء على الحياة الاجتماعية وعضوا أشل في قوميتها..."

وكأن صالح سويسي أراد أن يعبر عن آرائه وأن يساهم في ذلك النقاش من خلال روايته، فجعل شخصية الهيفاء مثالا لما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة من تعليم. فهي صورة لموقف الشيخ محمد عبده كما ورد في تفسير المنار، حين يقول: " إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية

أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات - إن كانت في بيت غنى ونعمة - يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، كما يختلف بحسب ذلك على الرجال..." (41)

وبخصوص قضية السفور والحجاب، وهي أيضا من القضايا المطروحة زمن نشر الرواية، فإن لم يتخذ منها الشيخ محمد عبده موقفا واضحا وصريحا فإن تلميذه الشيخ رشيد رضا (الذي استلهم منه صالح سويسي شخصية محمد رشيد الشامي في روايته) عارض السفور "سدا للذريعة"، فقضى بأن "السفور وما يتبعه من اختلاط إنما هو تقليد للمجتمع الأوروبي، ولا يفهمه إلا على أنه استباحة التهتك والفجور"، ويعلل موقفه بانتشار الفساد الأخلاقي وإباحة الشهوات وهدم التربية الدينية وأخلاق العفة باسم التجديد المدني والتقليد الأوروبي" (41)

فتأييدا لهذا المبدأ جعل صالح سويسي الهيفاء تحتجب عند قدوم ضيفها، وتتحاور معه من وراء الحجاب.

2.الإصلاح الديني

مثلما رأينا بالنسبة لمسألة المرأة، فإن تطهير الدين مما اعتراه من فساد ورفع الأوهام الباطلة الملصقة به كانت أيضا من القضايا المطروحة زمن نشر الرواية. ففي سنة 1904 رفعت قضية عدلية ضد الشيخ عبد العزيز الثعالبي بتهمة التطاول على أولياء الله الصالحين. كما عزل الشيخ محمد شاكر من التدريس بصفاقس من أجل حملته على البدع المنكرة التي

ألصقت بالدين والمتفشية آنذاك بصفاقس، من زيارة قبور الأولياء والإيمان بأراجيف مشائخ الطرق والزوايا، فجرد من شهادة التطويع وأقيل من التدريس في جانفي 1903، وقد كان لهذه القضية صدى في مجلة (المنار) فناصرت موقف الشيخ شاكر وآزرته في محنته. (42)

وقد أولت الصحافة الاستعمارية بتونس قضية الشيخ شاكر اهتماما كبيرا، فكانت مناظرة بين مراسل جريدة (لا ديبيش تونيزيان (La dépêche Tunisienne) علي محاوي ومدير جريدة (الحاضرة) علي بو شوشة في خصوص طريقة العيساوية. فكانت جريدة (لا ديبيش) تدعو إلى إبقاء هذه الطريقة وما شاكلها "لأغراض سياحية". (45)

أما مسألة زيارة القبور وأضرحة الأولياء والتبرك بهم وقضية "الوسيلة"، فقد كانت بدورها من قضايا الساعة. فعند زيارة محمد عبده الثانية لتونس سنة 1903، حدثت مشادة كلامية بينه وبين الشيخ صالح الشريف وهو مدرس بالزيتونة. وكان موضوع الخلاف موقف ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب في إنكارهما زيارة قبور الأولياء عامة وقبر الرسول خاصة. فنهض الشيخ محمد عبده مدافعا عن ابن تيمية. (46)

ويرى صالح سويسي أن فساد الدين إنما أصله جهل العامة وما يتصل به من انتشار الآفات الأخلاقية من طمع وحسد ونميمة وكذب. كما أنه يرى في موقف العلماء السلبي

تجاه تلك المظاهر ما هو أخطر وأشد. فهم متمسكون بما أسماه "النفع الخاص"، فلا هم يتقدمون لإصلاح تلك المفاسد، ولا يتركون من يتولى ذلك.

ولا ينسى المؤلف في خضم تلك المواضيع المتشابكة أن يقوم، على لسان أبطال روايته، بدور المرشد النصوح الواعظ. وباستلهام الأحداث قام المؤلف بدور الشاهد على عصره، وإن لم يذكر ما أشرنا إليه من أحداث فإنه ألمع إليها برموز تهدي القارئ العالم بها إلى مقاصده حينا وبصريح العبارة حينا آخر، وتبقى في جميع الحالات "عبرة لمن يعتبر" ودعوة لإصلاح الأمة بإصلاح دينها وتقويم أخلاقها.

3. الإصلاح الاجتماعي

يتمثل "برنامج" صالح سويسي الإصلاحي في "إيقاظ بني وطنه خصوصا والمسلمين عموما إلى السير على ما كان عليه السلف الصالح وسلوك الناشئة سبيل الرشاد"، ومقاومة "الأمراض التي حلت بجسم الأمة".

وكما أشرنا إليه في ترجمة المؤلف، كان صالح سويسي على اتصال بمختلف طبقات الشعب، فتعرف على مشاكلها، وأحصى العوائق التي كانت تصدها عن التقدم والرقي، فضمن روايته مختلف الآفات المنتشرة في المجتمع، معبرا عن رأيه بشأنها وهو أن لا خلاص من تلك الآفات إلا بانتشار العلم واقترانه بالتدين الصحيح وبالعمل المخلص الذي يستهدف النفع العام والاتحاد من أجل خير الأمة والتعاون والتكافل بين الأغنياء والفقراء.

4. الإصلاح السياسي

يقدم لنا صالح سويسي في روايته صورة عن الوضع السياسي في العالم الإسلامي. فيشير أولا إلى الوضع في جزيرة العرب. ثم يصب جام غضبه على أمراء المسلمين وملوكهم لما انغمسوا فيه من إسراف في البذخ والملذات وعدم اكتراثهم لأحوال العامة، بينما ينساق الخاصة من حاشيتهم وأتباعهم وراءهم في تقليد كل مفسدة والإعراض عن كل مصلحة، و"الناس في سلوكهم على مذهب ملوكهم". كما يعبر المؤلف عن سخطه ضد علماء المسلمين "الجامدين". أولئك الذين تقاعسوا عن وظيفة الإصلاح وقدموا مصلحتهم الشخصية على المصلحة العامة وانغمسوا في الإسراف والتبذير، فقد "استعملوا من ضروب الإسراف وحب الذات ما أوقع الأمة في الانحطاط الذي ذهب بعزتها ومجدها الذي أشاده الأسلاف". (44)

ويشير المؤلف إلى الأحداث السياسية في اليمن، فيقول: "أيها الرجل الكريم إن كل مؤمن غيور صار حليف الكدر والأسف في هذا الزمن، من أجل الفتن التي أحدثها أعداء الدين ببلاد اليمن..." محللا ما آل إليه الوضع في تلك الربوع من انقسام وتناحر من أجل السلطة بوحي من إنكلترا التي كان هدفها الأساسي السيطرة على ميناء عدن باعتباره نقطة استراتيجية أساسية لأسطولها الحربي والتجاري في طريق الهند.

ومقابل تلك الصورة القاتمة لما عليه المسلمون من فتن وانقسام، يقترح المؤلف على المسلمين أن يعودوا إلى أصول الدين وأن ينتهجوا نهج الإصلاح ويتكتلوا لمحاربة عدوهم

الموحد : أوروبا. فتحسين حال المسلمين لن يكون في رأيه إلا متى ثاروا على أنفسهم حتى يثوبوا إلى رشدهم، ثم الثورة على أعدائهم في الملة والدين لاستعادة مجدهم.

ويلخص المؤلف موقفه مما عليه الأمة الإسلامية، فيقول على لسان سراج الليل : "آه يا مولاي على ما أصاب أمة الإسلام من الانحطاط الجسيم في هذا الزمان، فتفرقوا عن محجة الدين فاستولت عليهم الأوهام الباطلة، ورسخت في أذهانهم خرافات الجاهلين، حتى وقعوا في حبائل الدجالين، وصاروا أذلاء مستعبدين..."

ويبقى الأمل النهائي في عمل المصلحين، رغم ما يتعرضون له من ضروب العقاب كالنفي والسجن والتضييق عليهم. ويعتبر المؤلف أن ذلك لا يتجاوز أن يكون إلا محنة عارضة وفتنة لامتحانهم على الصبر والجلد، وأنهم في آخر الأمر منتصرون لا محالة إذ لا أمل للأمة الإسلامية سوى النهج الذي يدعون إليه.

شخصيات الرواية

استعمل المؤلف شخصيات جاهزة، مثالية إلى حد الطوبائية، صفاتها أحادية، وهي في أكثرها خيرة، سمتها التقوى والصلاح والحكمة. فكانت بذلك مؤهلة للتعبير عن رسالة المؤلف الإصلاحية وغايته التعليمية. كما نلاحظ في بعض مواضع الرواية أن شخصية المؤلف/الراوي تطغى على الرواية وشخصياتها.

الهيفاء : هو اسم أم سراج الليل، وصفة فيها معاني رقة المرأة وأنوثتها وتغني عن وصف تلك الشخصية ورسم ملامحها التي لا نعرف عنها سوى أنها تركية الأب عربية الأم، لها "صوت لطيف"، "تتكلم باحتشام"، وتقرأ القرآن "بصوت رخيم". أما صفاتها فهي "امرأة فاضلة عاقلة"، و"سيدة عالمة جليلة"، لها ثقافة إسلامية صحيحة تحرص على تمتينها بمطالعة الكتب النافعة التي تستجلبها من أماكن بعيدة، حريصة على أداء فروضها الدينية وواجباتها الاجتماعية بصفتها أما وربة بيت. فهي حكيمة في تربية ابنها وفي تصريف شؤون بيتها، مطلعة على شؤون الدين والمجتمع، ولها فيها رأي.

سراج الليل : هو بطل الرواية والخيط الرابط لأحداثها. كان سنه عند وفاة والده عشر سنين، وعند بداية أحداث الرواية "بلغ سن البدر" (حوالي 14 سنة). ورمز البدر يوحي بمعاني الإشراق والكمال. فسراج الليل "ما زال جسده السليم ينمو وعقله يسمو" و"مخايل النجابة بادية عليه". ويفسر لنا المؤلف معنى ما أراد أن ترمز إليه تلك الشخصية، فيقول على لسان الهيفاء: "...واعلم يا سراج الليل أن العالم المتنور تبتهج الخلائق بوجوده لكونه سراجا ينير سبيل السعادة ليسلكوها، وستكون يا بني بإعانة الله وكدك واجتهادك في طلب العلم سراجا تضيء على أهل ملتك ووطنك". ولاشك أن المؤلف جرد هذه الشخصية من نفسه وأراد من خلالها أن يحقق ما تمناه لنفسه في صباه.

والد سراج الليل : لم يذكر المؤلف اسمه. هو "أحد الأعراب الكرام"، كثير السفر، صناعته الغوص لالتقاط اللؤلؤ، وقد تفانى في عمله إلى حد الموت.

محمد رشيد الشامي: هو "رجل له غيرة على أبناء دينه"، وهو "من عائلة لها اتصال بسيد الوجود عليه السلام"، وهو "نزيل مصر". صناعته "عرض بضاعة شريفة يعطيها لمن يقتنيها ويرغب فيها بدون عوض، مقامها شريف وحملها خفيف". وهو "حكيم أنبته الله نباتا حسنا في هاته الصحراء..."، وهو "نبراس العلماء المصلحين"، وهو "الإمام الكريم". وتحليل هذه الشخصية يدل على أنها ترمز إلى زعماء الحركة الإصلاحية بالمشرق : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.

الشيخ محمد النخلي : من التحويرات التي أدخلها المؤلف على الرواية عند إعادة نشرها سنة 1921 تعويض شخصية محمد رشيد الشامي بشخصية الشيخ محمد النخلي. وإدخال شخصية حقيقية معروفة في عمل قصصي خيالي فيه عدة دلالات منها إضفاء مسحة واقعية على ذلك العمل، وإعلان الولاء إلى تلك الشخصية التي ساندها بقلمه ولسانه ودافع عنها ببيانه ضد شيوخ الزيتونة "الجامدين" الذين يعارضون الحركة الإصلاحية عامة وإصلاح التعليم بالزيتونة خاصة. وقد ضمن المؤلف في روايته منذ نشرها في المرة الأولى عديدا من المواقف التي اتخذها في مقالاته المساندة للحركة الإصلاحية وللشيخ محمد النخلي. كما

حرص المؤلف على تبرئة ساحته وساحة الشيخ محمد النخلي من التهمة التي كانت سببا في محنتهما، فجهر بالدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية مدخلا للنهل من العلوم النافعة التي طورها أهل تلك اللغات. ويندرج تعويض شخصية الشيخ محمد رشيد الشامي بشخصية الشيخ محمد النخلي في السياق العام لتطور موقف المؤلف من الحركة الإصلاحية حيث أصبح يركز على الجانب الوطني بعد أن كان مطلبه الإصلاحي يشمل كامل العالم الإسلامي.

عبد الخالق العمري : ظهرت هذه الشخصية في الجزء الذي وجد مخطوطا من الرواية. هو شاب "لم يعبر في السن عقبة الثلاثين"، تلوح على محياه "علامات الشجاعة وسيماء الكرم"، "باسم الثغر متهلل الوجه"، "وجهه بشوش وله صفات هاشمية وأصالة عصامية وسماحة حاتمية". صناعته الفلاحة ويتولى تعليم الأطفال القرآن والعبادات، ذكورا وإناثا دون تمييز، ويربيهم على مبادئ "التربية المبنية على أساس الدين".

وإشارة المؤلف بعد تقديم تلك الشخصية مباشرة إلى ما لاقته دعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من قبول وتأييد في العالم الإسلامي، والتدليل على "تحسين حال المسلمين" بما نتج عن ذلك من بوادر النهضة الإصلاحية يؤكد لنا أن المؤلف أراد من خلال تلك الشخصية تجسيم فكرة الشيخ محمد عبده حين قال للأفغاني "...نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على

منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الإصلاح ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح" فعبد الخالق العمري هو قائد من قواد الإصلاح الذين ذكرهم محمد عبده.

الأطفال الذين يعلمهم عبد الخالق العمري : هم ثمانية من الأطفال الصغار وست بنات، "على غاية من النظافة" و"وجوههم تتلألأ كالأقمار". وهم يمثلون "مستقبل أبناء الإسلام".

مستخدمو الحديقة : ونتعرف عليهم في النص المنشور بمجلة (خير الدين)، وقد حذف المؤلف الفصل الذي يبرزون فيه عند إعادة نشر الرواية. وهذه الشخصيات ثلاثة وهي :

الشيخ وابنه : وهما الشخصيتان السلبيتان الوحيدتان في الرواية (ولعل ذلك ما جعل المؤلف يحذف الفصل الذي يبرزان فيه)، إذ جمعا كل الصفات الذميمة من كذب وحسد وجهل وكسل.

الشاب حازم : ومعنى الحازم في اللغة من كان يضبط أمره ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة. هو شاب متعلم حصل على الشهادة الثانوية من المدرسة الفلاحية بالهند (رمز للحديث النبوي "اطلبوا العلم ولو من الصين"). وهو رمز للرجل الجاد الذي يجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

مداح الحضرة النبوية : ظهرت هذه الشخصية في آخر الجزء الذي وجد مخطوطا من الرواية. يقدم نفسه قائلا : "إني أخوكما مداح الحضرة النبوية"، فيجيبه الشيخ محمد رشيد: "...أن هاته الصفة لتغنينا عن التعريف بالاسم..."، هو شيخ يتأبط كتابا يسطع منه شعاع نوري، "جسمه لطيف"، وهو صاحب كتاب (سعادة الدارين)، وله تآليف عديدة وأفكار سديدة".

استخلصت من ذلك أن "مداح الحضرة النبوية" شخصية معروفة من خلال الكتاب المذكور، واستنتجت أن المعني هو يوسف النبهاني (1849 ـ 1922) الذي كان معروفا كذلك من خلال مقالاته في جريدة (الجوائب) وله حوالي 22 كتابا في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، كما له مؤلفات في الرد على مطاعن المبشرين ضد الإسلام وفي موضوع الكرامات وخوارق العادات، وفي موضوع الاغترار بالحياة الدنيا وتقليد الأمم الأوروبية في غير ما ينفع المسلمين... وهي كلها مواضيع مشار إليها إن قليلا أو بإطناب في الرواية. (45)

واعتماد هذا الاستنتاج يسلمنا إلى التساؤل حول زمن كتابة الجزء الذي وجد مخطوطا من الرواية، إذ هناك إشارات تهم حياة "مداح الحضرة النبوية" (أي يوسف النبهاني) تتعلق بأحداث حصلت بعد سنة 1906. فقد زار مصر سنة 1910 ولا تذكر سيرة حياته التي اطلعت عليها كم بقي بها، ثم تولى عدة مناصب قبل أن يتولى القضاء في بيروت وهي المكان الذي اختاره المؤلف ليلتقي به سراج الليل والشيخ محمد رشيد.

منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الإصلاح ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح" فعبد الخالق العمري هو قائد من قواد الإصلاح الذين ذكرهم محمد عبده.

الأطفال الذين يعلمهم عبد الخالق العمري : هم ثمانية من الأطفال الصغار وست بنات، "على غاية من النظافة" و"وجوههم تتلألأ كالأقمار". وهم يمثلون "مستقبل أبناء الإسلام".

مستخدمو الحديقة : ونتعرف عليهم في النص المنشور بمجلة (خير الدين)، وقد حذف المؤلف الفصل الذي يبرزون فيه عند إعادة نشر الرواية. وهذه الشخصيات ثلاثة وهي :

الشيخ وابنه : وهما الشخصيتان السلبيتان الوحيدتان في الرواية (ولعل ذلك ما جعل المؤلف يحذف الفصل الذي يبرزان فيه)، إذ جمعا كل الصفات الذميمة من كذب وحسد وجهل وكسل.

الشاب حازم : ومعنى الحازم في اللغة من كان يضبط أمره ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة. هو شاب متعلم حصل على الشهادة الثانوية من المدرسة الفلاحية بالهند (رمز للحديث النبوي "اطلبوا العلم ولو من الصين"). وهو رمز للرجل الجاد الذي يجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

مداح الحضرة النبوية : ظهرت هذه الشخصية في آخر الجزء الذي وجد مخطوطا من الرواية. يقدم نفسه قائلا : "إني أخوكما مداح الحضرة النبوية"، فيجيبه الشيخ محمد رشيد: "...أن هاته الصفة لتغنينا عن التعريف بالاسم..."، هو شيخ يتأبط كتابا يسطع منه شعاع نوري، "جسمه لطيف"، وهو صاحب كتاب (سعادة الدارين)، وله تآليف عديدة وأفكار سديدة".

استخلصت من ذلك أن "مداح الحضرة النبوية" شخصية معروفة من خلال الكتاب المذكور، واستنتجت أن المعني هو يوسف النبهاني (1849 ـ 1922) الذي كان معروفا كذلك من خلال مقالاته في جريدة (الجوائب) وله حوالي 22 كتابا في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، كما له مؤلفات في الرد على مطاعن المبشرين ضد الإسلام وفي موضوع الكرامات وخوارق العادات، وفي موضوع الاغترار بالحياة الدنيا وتقليد الأمم الأوروبية في غير ما ينفع المسلمين... وهي كلها مواضيع مشار إليها إن قليلا أو بإطناب في الرواية. (45)

واعتماد هذا الاستنتاج يسلمنا إلى التساؤل حول زمن كتابة الجزء الذي وجد مخطوطا من الرواية، إذ هناك إشارات تهم حياة "مداح الحضرة النبوية" (أي يوسف النبهاني) تتعلق بأحداث حصلت بعد سنة 1906. فقد زار مصر سنة 1910 ولا تذكر سيرة حياته التي اطلعت عليها كم بقي بها، ثم تولى عدة مناصب قبل أن يتولى القضاء في بيروت وهي المكان الذي اختاره المؤلف ليلتقي به سراج الليل والشيخ محمد رشيد.

وهذا يجعلني أعتقد أن النص المخطوط متأخر عن نشر الرواية في المرة الأولى.

الأسلوب القصصي عند صالح سويسي

إن وجد صالح سويسي عند رواد الأدب القصصي بالمشرق أنموذجا للكتابة فإنه بقي ملتصقا بالقوالب الأصلية للحكاية الشفوية حيث يأخذ المؤلف/الراوي الحيز الأوفر من العمل، فيحاور ويتساءل ويجيب عن التساؤلات مكان شخصيات الرواية، ويقدم الأدلة ويستشهد بالبراهين شعرا وحكما وأمثالا وأقوالا مأثورة...

فبعد السرد التقديمي للأبطال وبيئاتهم، تبدأ المحاورات، وهي مسرودة ضمن القصة، لا نكاد نميزها إلا بما تضمنته من أفعال القول والإيجاب. وقد أعد المؤلف القارئ لتقبل مشاركة جميع شخصيات الرواية بأن جعلها في سن تمكنهم من حسن القول وإجادة الرد. ولعل هذا من السمات الأساسية للقالب الوعظي الذي ابتنى عليه المؤلف روايته. فجميع شخصيات الرواية - بما في ذلك السلبية منها - تتحرك في إطار المضمون الوعظي الذي أراد المؤلف إبلاغه. فالحوار وسيلة لإبلاغ الرسالة الوعظية والتركيز على المبادئ الأخلاقية، فجاء في أغلبه متسما بسمة الخطب التوجيهية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فنجد أن كلام الواعظ مطول، زاخر بدلائل الإثبات والتعاليق والشروح بقدر ما يتطلبه الإقناع من تقديم البيانات المقنعة، فيصبح المحاور في موقف السامع المتعظ المنصت. وإن شارك في الحوار فلطلب مزيد التوضيح، أو

إثارة مسألة لم يتطرق لها المتحدث، مما يعطي للواعظ فرصة جديدة للكلام أو للانتقال إلى موضوع جديد، وهذا يجعل الحوار الوعظي غير متكافئ ويكاد يقتصر على طرف دون آخر.

وإن وجدنا في بعض المقاطع شيئا من التكافؤ بين المتحاورين، نلاحظ أن القائم بدور الواعظ (الهيفاء، محمد رشيد الشامي/محمد النخلي) أقدر على الحجة، وأبلغ في التأثير وبسط الآراء الإصلاحية وشرحها والتدليل عليها.

ومن سمات أسلوب صالح سويسي عدم الاقتصار على محور معين من الإصلاح، بل نراه متنقلا من محور لآخر يطرق فيها مختلف القضايا الإصلاحية التي تشده. فمن الحديث عن التربية والتعليم إلى ذكر تفرق كلمة المسلمين وضعف دولتهم، فإلى وصف العلاج الذي يقتضيه ذلك الحال لإعادة مجد المسلمين... و"الحديث ذو شجون".

فإن تركنا تدخل الطرف المستمع المقتضب جانبا، أمكن لنا تفكيك النص الروائي إلى مجموعة من الفقرات المستقلة، تمثل كل فقرة منها مقالة مفردة ذات أسلوب صحفي تقريري ويمكن قطعها عن باقي السياق. لذلك نعتقد أن المؤلف لم يجد كبير عناء في مراجعة روايته عندما عزم على إعادة نشرها، فحذف ما أراد حذفه، وأضاف ما شاء إضافته دون أن يكون لذلك تأثير في السياق العام للرواية.

وجلي أن الرغبة في جعل الدعوة الإصلاحية تشمل كل ميادين الحياة قد ساعدت على هذا الخلط والدمج، إذ أن الهدف التوجيهي واحد بالنسبة لجميع فروع الإصلاح.

الهيفاء وسراج الليل (46)

هدية أدبية إلى أبناء المكاتب العلمية حكاية الهيفاء وسراج الليل ـ أقدم هاته الحكاية الأدبية والعبرة الحكمية إلى زهرات العصر الحاضر، ورجال المستقبل الباهر، أبناء المكاتب العلمية، من الشبيبة التونسية وأرجو من ذكائهم ولطفهم أن يمعنوا النظر فيها، ويدبروا معانيها. فالعاقل من أمعن النظر، وتدبر واعتبر. (47)

ولد (في جزيرة العرب) (48) بضواحي اليمامة ولد لأحد الأعراب الكرام فسماه (سراج الليل) وقد سر بازدياده لأنه لم يرزق سواه من قبل وكانت والدة سراج الليل امرأة فاضلة عاقلة تركية الأب عربية الأم تسمى (الهيفاء) فاجتهدت في تربية ابنها (49) مستعملة معه جميع الوسائل الصحية في حالتي رضاعه وفطامه شأن الأمهات العاقلات ـ وكان والد سراج الليل كثير السفر يقصد الغوص لالتقاط الجوهر(50) فسافر مرة لمباشرة حرفته كعادته فغاص في البحر فأدركه الغرق. فطرق مسامع الهيفاء نعي زوجها فقابلت المصيبة بالرضا وزاد اجتهادها في تربية ابنها (سراج الليل) وكان عمره عند وفاة والده عشر سنين ولا زال جسده السليم ينمو وعقله يسمو بمحاسن تربية الهيفاء (لأن الأم هي المدرسة الأولى)(51) إلى أن بلغ في السن كمال البدر. فرأت الهيفاء مخائل النجابة بادية عليه وتأسفت لعدم وجود مكتب في

جزيرة العرب أو أستاذ تدفعه إليه وصارت حليفة التفكير طالبة الوصول إلى الأسباب التي ترقي ولدها لأوج السعادة وتزج به في فسيح الخير - إلى أن حانت الفرصة لها في ليلة رق هواؤها وصحت سماؤها وزهت نجومها. فجلست (على كرسي) (52) في حديقة لها هب النسيم على أشجارها فتمايلت، وتضوع عبير أزهارها على تلك الأرجاء فتطيبت، وناهيك بصفاء الفكر، في أوقات السحر. (وجعلت أمامها منصة) ونادت بصوت لطيف يا (سراج الليل) (فقال لبيك يا أماه، قالت تعال اجلس أمامي. فأتى) (52) فأقبل نحوها بأدب واحتشام وجلس طبق أمرها (على المنصة) (52) فافتكرت هنيهة وقالت - يا بني أتدري لماذا خلقت؟ - قال خلقت لعبادة الخالق وشكره يا أماه، فقالت وما معنى العبادة والشكر؟ فقال نعبده بالصلوات والأذكار ونشكره بقولي (لك الشكر يا الله)، فقالت وما يتبع هذا؟ قال لا أدري. فقالت قد خفي عليك يا بني روح العبادة وهي العظة والاعتبار. وتصور عظمة الواحد القهار. أما سمعت حكمة واسطة عقد المصلحين (اعبد الله كأنك تراه فإذا لم تكن تراه فإنه يراك) وكذلك الأذكار يا بني إذا كانت خالية من الخشية مشوبة بالغفلة فهي كما قال إمام الصوفية الشيخ محيي الدين :

بذكر الله تطمئن القلوب وتنهال المصائب والخطوب

ومراده الذكر مع الغفلة وعدم الخشية - أما الشكر فحقيقته تصريف الجوارح فيما خلقت (لأجله، وبالجملة فإنك يا سراج الليل خلقت) (52) لتعمل فتحيا لا لتهمل فتموت.

فقال سراج الليل (يا أماه إن هاته الأفكار السامية يحتاج الشخص فيها إلى أستاذ يغوص به في بحارها ويكشف له عن غوامض أسرارها).

فقالت (الهيفاء) لهذا دعوتك في هذه الساعة (53) لأني أنبئت وأنه حل بوطننا رجل قوي الإيمان من أهل مدينة القيروان عالم بعلوم الدين خبير بحوادث الزمان. مولع بالإصلاح وتهذيب الأفكار. متخلق بأخلاق أسلافنا الأطهار. شيخ عليه مهابة الإسلام في التدريس والإصلاح العام. وقد عزمت بحول الله على إرسالك معه إلى بلده الطيب لتقتبس من علمه النافع وإرشاده العظيم وبعد تنوير عقلك بالعلوم الدينية. والأخلاق السلفية يرسلك إلى إحدى الممالك الراقية لتقتبس من لغتها وعلومها العصرية ما تنفع به أمتك في معترك هاته الحياة ـ واعلم يا سراج الليل أن تعلم اللغات واجب على كل إنسان. إذ كل لسان في الحقيقة إنسان. وقد قال أحد شعراء العصر:

حفظ اللغـــات علينـــا فـــرض كفـــرض الصـلاة

فـــليس يحفـــظ ديـــن إلا بحفـــظ اللغـــــــات

فقال سراج الليل (سمعا وطاعة لك يا أماه لأني أعتقد وأنه ما رضيت باقتحام مشقة فراقي إلا لأمر خطير يستدعي فلاحي ونجاحي في الحياة الفانية (وعظيم الثواب) (52) واكتساب السعادة في الحياة الباقية فما اسم هذا الأستاذ المصلح العظيم) ـ فقالت (أستاذ كبير ومصلح شهير يسمى

محمد النخلي). فسر سراج الليل بهذا الكوكب الوهاج ثم قاما من تلك الروضة التي ابتهجت بحديثهما أكثر من ابتهاجها بأزهارها فقصدا كلا منهما غرفة النوم. (فأثر كلام الهيفاء في ابنها سراج الليل بحيث إنه صار في تلك الليلة وهو مضطجع على فراش النوم يردد هذه الكلمات (...متى تسافر يا سراج، يا رب ما أطول الأسبوع علي، وهل والدتي تريد إرسالي لمصر بقصد التعليم. وهل الأستاذ رشيد بوطننا؟... الله يسخر في السفر...الله يسخر في السفر... ثم انقلب إلى جنبه الأيمن وطبق عينيه ونام). (52)

وفي الغد قام سراج الليل باكرا فتوضأ وصلى الفجر ثم رفع يديه بقلب ملؤه الإخلاص وقال (اللهم يا من جعلت الصلوات تنهى عن الفحشاء والمنكر وميسر كل امرئ لما خلق له يسر لي أسباب السفر والتعليم واجعلني من أهل المعارف المبنية على أساس الدين المستقيم، ونور فكري بالعلم يا جبار السماوات لأن الجهل موت والعلم حياة). (54)

ثم خرج سراج الليل إلى الحديقة يستنشق النسيم فحانت منه التفاتة فرأى الهيفاء على ربوة عالية جالسة أمام دالية، فقرب منها فوجدها تتلو هاته الآية "فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم"[1]. وصارت ترددها بتدبر واعتبار.

(1) عبس، الآيـة: 24.

فوقف سراج الليل خاشعا إلى أن تمت الهيفاء التلاوة ثم قال: يا أماه ما أحلى هذا الكلام وما أبلغ هذا الخطاب، ما أعذب هذا البيان. فقالت: يا سراج الليل هذا كلام مكون الأكوان فكيف لا يكون محكما؟ كلام لو تدبر الناس معانيه وعملوا بما فيه لصاروا حلفاء السعادة في كل زمان. لكن قاتل الله الإنسان وعاؤه في فؤاده ولم يتهذب، يتلو هاته الأبيات البينات وهو حليف المكر والخديعة وأفعاله كسراب بقيعة. ما أقسى هاته القلوب (يا سراج) (52) قلوب من لحم ودم من مواعظ هاته الآيات والله يقول "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله"[1]. فقال سراج الليل : يا أماه إن الأمر الذي عزمت على إرسالي للقيروان (55) للتحصيل عليه لا بد أن يكونَ فيه الخير العميم والنفع العظيم. فقالت : بلى إذا كان العلم مصحوبا بتدين وإخلاص، وقصد النفع العام لا النفع الخاص، إنك تجد يا سراج الليل في أهل جنسك عددا كثيرا من العلماء منحرفين عن طريق الهدى سوى أفراد وقليل ما هم. والعامل الوحيد لذلك هو انتشار سلك التكاتف وتهافت كل منهم على جلب النفع لشخصه (56) . ولو تدبرت يا سراج في هذا الأمر الذي يسمونه النفع الشخصي لوجدته لا يصدق عليه إلا اسم الضرر العام فلا تتم السعادة ولا يحصل الهناء إلا بالاتحاد والتعاون وأن تحب الخير لغيرك كما تحبه لنفسك كما قال رسولنا عليه السلام "لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". واعلم يا سراج الليل أن العالم المتنور تبتهج الخلائق بوجوده لكونه نبراسا (57) ينير لهم سبل

(1) الحشر، الآيــة : 21.

السعادة ليسلكوها وستكون يا بني بإعانة الله وكدك واجتهادك في طلب العلم سراجا يضيئ على أهل ملتك ووطنك واعلم يا سراج الليل أن تعاطي الأشياء من تعلم وغيره لا يجني الإنسان ثمرة النفع منها إلا بإتقانها. فعلى المرء أن يتقن كل شيء وبذلك يسمى بالرجل الحي. تأمل في حديقتنا هاته فإنها ما اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج إلا بإتقان الغراسة وانظر إلى حدائق جيراننا تجد معظمها قد صوحت أشجارها وذبلت أزهارها واكفهر منظرها فحول عنها الأنظار فلم تجد بها ذات طوق على فنن. أما حديقتنا يا سراج فقد تحسن حالها (58) لكثرة الأشجار وازينت أرضها بحلل الأزهار فألفتها الطيور الصوادح وصارت بهجة للناظرين. فإتقان الأشياء ومنها مهنة الغراسة من أهم ما جاء به الدين الإسلامي القويم وهذه آية كريمة تنادي العباد بأفصح عبارة وأوضح بيان لتحريضهم على إتقان الأشياء بالطرق العلمية وهي قوله تعالى "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا"[1]. وبالجملة فالدين الإسلامي من موجباته إتقان الأشياء لأنه صديق العقل فالحمد لله الذي جعلنا يا سراج منه.

فقال سراج : يا أماه إني رأيت الناس أعداء الإتقان فلا يتقنون أي شيئ صالح وهذه جزيرتنا العربية طالما أسمع عن أهاليها الأخبار المكدرة فهي تموج بالفتن موجا وصبغت أرضها بدماء أبنائها وقد وقع في الحرمين المقدسين ما يفتت أكباد المؤمنين ويتبرأ منه الدين. ومن أقام ركنه المكين. فما هذا الشقاء الذي نزل. فتنفست الهيفاء الصعداء وقالت : يا

(1) الكهف، الآيـة : 7.

سراج إن هؤلاء الأقوام قد خالفوا ما جاء به الإسلام. وقد خاطبهم الله بقوله " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا.."[1] فعكسوا القضية إذ صاروا أعداء وهذه الفتن والضغائن والأحقاد وتفرق الكلمة قد انتشرت بين المسلمين وفرخت جراثيمها في جسم الأمة فأحدثت ضعف الممالك وسقوط الدول وصرنا أرقاء بعد السيادة. فالإسلام الآن كما قال أحد الحكماء: "يمثل المرض الذي أحاط بجسم الأمة لم أجد دواء ناجعا لموت جراثيمه وإعادة الجسم إلى صحته إلا بالرجوع إلى أصل الدين".

(وبينما الهيفاء وسراجها يتجاذبان أطراف هذا الحديث الجميل إذ لاحت التفاتة من سراج الليل إلى الحد الفاصل بين حديقتهما وحديقة أحد أجوارهما فرأى عقربا في أقتم صورة وأبشع منظر متسربة من جهة حديقة أحد المجاورين لهما بالجنب فقال سراج الليل : انظري يا أماه... انظري يا أماه. فنظرت إلى جهة العقرب وأسرعت إليها فقتلتها حيث كانت النعل حاضرة. ولما رجعت إلى مكانها قالت : يا سراج الليل هل رأيت ما ينتج من الجار الجاهل عديم الإتقان ليضر بنفسه وبخيراته لأنه لو أحسن حديقته وبنى ما خرب منها وأتقن غراسته لأمن شر الحيوانات السامة كما حصل الأمن لنا بإتقان حديقتنا ونظافتها لأن النظافة أول عمل يجب على الإنسان. وقد قال الرسول "النظافة من الإيمان". وبني الدين على النظافة. فقال سراج الليل: عجبا من أقوال هؤلاء الناس

(1) آل عمران ، الآيــة : 103.

يرون بأعينهم ذوات السموم ولا يستعملون الجهد في إبادتها بإتقان خدمة الأرض ونظافة المكان. ألهم لذة من الضرر؟ أم لهم عشق في العقارب؟... فقد وجد قسم من بني جنسنا يأكل العقارب. وهؤلاء بحالة رقص المجانين وصفة المعتوهين زاعمين أن في ذلك أسرارا ربانية وحالات صوفية. وما درى هؤلاء المجانين أنهم أحيوا ما أنكره القرآن، وطلب أهل العلم الوقاية من شره حيث قال تعالى "فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم..."[1] فهم عوض أن يطلبوا الوقاية من هذا الضرر. أتعلم أن أكل العقارب ليس بعجيب في حد ذاته لأن العقرب إذا أزيلت شوكتها صارت هي والضفدعة سواء. ويوجد أيضا في هذا القوم من يصير شيخه قطا، بحيث يستعمل في حالة الرقص أفعال القطاط. فتبسم سراج الليل وقال : وهل يأكلون يا أماه الجرذان كما تفعل القطاط؟ فضحكت الهيفاء وقالت : إن هذا الأمر يا سراج يستدعي البكاء لا الضحك. ولكن من الحزن ما يضحك، وفيهم من يصيره شيخه جملا فيستعمل وظيفة البعير في الأكل والهيجان. أما من جهة عمل الإتقان فلا فائدة للناس فيه. ومنهم... ومنهم... يا بني ما أبعد الناس عن هدي الدين ومحاسن الإسلام). (59)

وستتجلى لك يا سراج الليل مقاصد الدين الإسلامي وحكمه الباهرة عند انتصابك للتعليم بهمة الأستاذ ضيف الجزيرة العربية. فقال سراج : وهل أرسلت يا أماه إلى هذا العالم الكبير الشيخ محمد النخلي القيرواني وتحادثت معه في شأن سفري ومستقبلي الزاهر بإعانة الله ورضائك عني

(1) الطور، الآيـة : 27.

وإرشاد أستاذي الكبير؟ فقالت الهيفاء : إنه ضيفنا الليلة وسأتحدث معه بمحضرك إن شاء الله ـ فقال سراج الليل : إن الشمس قد قربت منا فهل تستحسنين الدخول إلى بيتنا. (فقامت وقالت : تعال بنا يا سراج نتعهد مستخدمي الحديقة ونحرضهم على الاجتهاد في العمل لأني رأيت شجر التفاح يحتاج إلى زيادة الخدمة. فذهبا والهيفاء تردد النظر في أنواع تلك الأشجار وكلما نظرت إلى نوع منها حركت رأسها تحريك استحسان إلى أن وصلت إلى أحد مستخدمي الحديقة فوجدته في عمل مستمر فقالت له : أحسنت فيما صنعت. إن شجر التفاح يا ولدي رأيته في احتياج إلى زيادة الخدمة... فقال : بلى لأن المكلف بخدمة القسم الذي فيه شاب حليف الكسل لا يصلح للعمل وهذا الشاب هو المسمى (حازم). وما كاد يتم كلامه إلا وصوت من خلفه أجابه أنا كسلان يا أيها الشيخ المفتري؟ متى كلفت أنا بخدمة القسم الذي فيه شجر التفاح؟ أليس ابنك هو المكلف بذلك فاصفر وجه الشيخ والتجم بلجام الخرس، فرجع الشاب حازم إلى خدمته وهو يردد كلمة "يا للعجب يا للعجب". فأمرت الهيفاء ابنها سراج الليل بإحضار ولد ذلك الشيخ فأحضر بسرعة، فقالت له الهيفاء: من المكلف بخدمة القسم الذي فيه شجر التفاح؟ وفي أثناء سؤالها نظرت بمؤخر عينها إلى والد ذلك الشاب فوجدته يحرك رأسه مشيرا لابنه أن قل لها : لست المكلف بخدمة ذلك القسم. فظن عكس قصد والده. فقال للهيفاء : أنا المكلف بذلك. فقالت الهيفاء : تعال يا شيخ أنت وابنك. فامتثلا، وذهبا صحبة الهيفاء وسراج الليل. ولما وصلا إلى مكتب الهيفاء

قالت لهما : كم تريدان مني من جهة أجركما؟ فقال الشيخ: أنا أطلب مائة قرش وثلاثة قروش. وقال ابنه : أنا أريد ثلاثين، فعملت الحساب فوجدت الشيخ زاد على ما يستحقه عشرة وابنه أربعة، فدفعت لهما ما ادعياه بدون نزاع وقالت لهما : اذهبا لحالكما فلا حاجة لي بكما، فذهبا. فقالت الهيفاء : هل رأيت يا سراج الليل عاقبة الحسد. إن هذا الشيخ حسد حازم المسكين فافترى عليه ونسبه إلى الكسل رائما بذلك حرمانه من معاشه فأبى الله إلا أن يحرك الحسود وابنه وما كفاهما ذلك بل زاد كل منهما في أجره على ما يستحقه، فالحمد لله الذي أظهر ما تكنه صدورهما وسأجلب غيرهما ويكونان من الثقاة إن يسر الله وما أحوجنا بمثل الشاب حازم لأنه حصل على الشهادة الثانوية من المدرسة الفلاحية أثناء إقامته بالهند بقصد التعليم. فقال سراج الليل: يا أماه لا شك أن الفقر والجهل هو الذي حمل الشيخ على الحسد والكذب. فقالت: يا سراج إن هذه الصفات الذميمة لم تكن مقتصرة على الفقراء والجهلاء بل تجدها في الأغنياء والعلماء لأن المثري والعالم إذا لم يكونوا من أهل التقوى والإخلاص ولكل منهما حظ عظيم من فقه النفس فلا ريب أن الصفات الذميمة والأفعال القبيحة متلبسة بأهل هذا القسم أكثر من غيرهم، لأن الغني فاقد الإحساس يكثر المال ولا يعين على المشروعات الحسنة فتتوقف أسباب النجاح، وكذلك العالم الذي فقد تلك الخلة الشريفة لا يتعدى نفعه إلى بني جنسه بحيث إنه إذا رأى مشروعا حسنا قال : هذه بدعة، وإذا نظر في كتاب لنفع العموم قال : فيه نزغات، وإذا سمع كلاما بليغا قال : أنتقد على

القائل كذا، ومن حقه كذا عوض كذا، إلى غير ذلك من الأقوال الصادرة من صدر تغلي مراجله بنيران الحسد. فقال سراج الليل : إن هذه أمراض معضلة حلت بجسم الأمة "إنا لله وإنا إليه راجعون"). (60)

ثم دخلا وقدمت مائدة الغداء فأكلا وحمدا المنعم الكريم وقام كل منهما إلى غرفة نومه ليقيل. ولما استيقظت الهيفاء نادت ابنها سراج الليل فلبى النداء وقصدها فقالت : يا سراج أنا أريد أن أشتغل في هاته العشية بمطالعة كتاب يسمى "كيف تربي الأبناء" أرسله إلي خالي من الأستانة، فتفسح أنت في ساحة الحديقة وعند غروب الشمس كن مصغيا إلى الباب فإذا وجدت الطارق الشيخ محمد النخلي فاعلمني بسرعة. فقال : سمعا لما أمرت. ثم خرج يتجول في فسيح تلك الروضة ولما غربت الشمس صار سراج الليل مصغيا إلى طرق الباب بكل تشوق وانتظار. ولما حانت صلاة المغرب قام سراج الليل لقضاء فرضه ولما فرغ سمع طرق الباب فذهب بسرعة إلى والدته وقال : يا أماه الضيف أتى احتجبي. ولما احتجبت ذهب إلى الباب فوجد الأستاذ النخلي فحياه بالسلام وقابله بغاية الأدب والاحترام وأذنه بالدخول فدخل. فصار يردد النظر في محاسن تلك الحديقة وحسن انتظامها وكان دخوله من مجاز قسم العنب فنظر إلى سراج الليل وقال : يا بني لقد أذكرتني هذه الحديقة وشجر عنبها ما وعد الله به المتقين في الدار الآخرة حيث قال : "إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا

وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا[1]. فقال سراج الليل : صدق الله العظيم. ولما وصلا إلى بيت الطعام وجلسا إلى المائدة أجابته الهيفاء من وراء الحجاب بقولها : مرحبا بك أيها الأستاذ لقد شرفت منزلنا بزيارتك الميمونة ـ فأجابها بقوله : جزاك الله خيرا أيتها السيدة وبلغك ما تريدينه من نجاح سراجك الوهاج. ثم قدما له الطعام وهو نوعان بسيطان. فقال الأستاذ (61) النخلي : يا سراج الليل إن ربة المنزل حكيمة عاقلة لسبب اقتصادها في المعيشة وهذا هو الأساس الوحيد لنمو المال وحفظ صحة العائلات، فما بلغ الأسلاف منتهى الكمال إلا بالاقتصاد وبساطة العيش فتوفرت لديهم الأموال وقدروا على تجهيز الجيوش للحروب بقصد الفتح والاستعمار وقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة من ماله الخاص فهذه هي حكمة الاقتصاد، إنما البساطة في المعيشة فقد كان الأسلاف على غاية من الصحة وسلامة العقول وقد قيل (العقل السليم في الجسم السليم)، وناهيك بشجاعتهم وقوة عزيمتهم وخوضهم في المعامع لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله فهم المؤمنون حقا ورجال العالم في ذلك الزمان وقد كانت بساطتهم في المعيشة مقرونة بالنظافة في المأكل والملبس. أما حال الخلف فهو فساد وتلف. فقد تقصروا حتى تكسروا. تجد موائد المثريين أو المقلدين لهم عليها من أنواع الأطعمة ما يزيد عن العشرة وقد يلزم الضيف أن يأكل من جميع الأصناف لسبب اقتراح رب المنزل ولربما أقسم عليه ومن البر ما يكون

(1) النبأ، الآيـة : 31.

عقوقا فتملأ بطنه ويعسر هضمه وهذا منتهى الضرر. وقد يعظم الإسراف عند غالب أغنياء المسلمين في شهر رمضان فيجعلونه ربيع البطون ولا يطعمون فيه البائس واليتيم بل يستدعون الأصدقاء وغيرهم بقصد المديح والتفاخر وإذا لمت على أحدهم أعرض عنك إعراضا وسلقك بلسانه ولربما ظن أنك محتاج إلى طعامه ولو استدعاك لما وقع منك ذلك ويضل يتبجح بساقط الكلام فإذا قلت له أطعم البائسين واليتامى لأن الله يقول "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما..."[1] لم يزده قولك إلا تماديا عما هو فيه وكم تفتح من محلات في شهر القرآن للعب الميسر وارتكاب الفجور فعلى من توجه اللوم؟ أم أين من يكف نفسه عن الحرام ويعرف فضل الصوم؟

وبالجملة فالفساد أظهر جنده. والإسراف بلغ حده. تجد قصور الأمراء والعلماء في هذا الزمان على غاية من التزويق وتذهيب السقوف ونقش الأبواب أما الأثاث فحدث عنه ولا حرج وإذا طولب أحدهم في الإعانة على مشروع عامي أو تأسيس ملجأ ليتامى المسلمين الذين وصلوا إلى درجة نهائية في الضياع وسوء التربية وقلت له انظر إلى وسخ أجسامهم أنظر إلى اصفرار وجوههم من شدة المخمصة ألق سمعك إلى تلفظهم بفحش الكلام أنظر إلى جولانهم بطرق البلاد وأسواقها وهم في تلك الحالة التعيسة والمنظر المكدر لنفوس أهل الإيمان أنظر بربك هل تجد بالليل أو بالنهار يتيما من أيتام اليهود على تلك الصفة الشنيعة وسوء ذلك الحال - وقل لذلك

(1) الإنسان، الآيــة: 8.

الغني أما سمعت قوله تعالى ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾[1] ردد هذا القول إلى ذلك الغني الذي صرف ماله على بطنه وأثاث داره. وخمره وأوتاره. فلا ريب أنه يجيبك ﴿هذا شيء من موجبات الحكومة﴾. وهكذا من الأعذار الواهية الدالة على ضعف الإيمان وعدم الإحساس ولا غرابة في هذا لأن الناس في سلوكهم على مذهب ملوكهم فقد تسمع في أوقات المصيف أن الأمير الفولاني ذهب إلى باريس والآخر قصد لندرة بقصد الخلاعة والاستحمام بالحمامات المعدنية وقد يشاهدون بتلك العواصم المدارس العالية والمعامل الفائقة إلى غير ذلك من أسباب الترقيات وسعادة الأمم. كل أمراء المسلمين يعلمون هذا أما بالمشاهدة أو بالسماع ولكنهم عن التذكرة معرضون. وفي غفلتهم ساهون. نعم إنهم قلدوا الأجانب لكن في كل ترف ولهو. قلدوهم في تشييد القصور. قلدوا الأوغاد منهم في الإدمان على معاقرة الخمور. أما الأمور النافعة والمصالح العامة فلا تخطر لهم ببال بل يرجعون من خلاعتهم مصرين على التقاليد الفاسدة. وسواء عندهم ارتفعت الأمة أم سقطت. عمرت البلاد أم خربت. هذا حال القوم في مثل هذا اليوم. وقد أدانا لهذا البيان يا سراج الليل اقتصاد السيدة والدتك وبساطتها في المعيشة والحديث ذو شجون. (62)

[وتمادت السهرة بالشيخ وتلميذه حتى ساعة متأخرة من الليل دون أن يتفطنا إلى ذلك. وكانت عينا الصبي لا تفارقان وجه الشيخ متتبعا حركاته، يلتهم ما يسمعه التهاما وبجميع

(1) الماعون، الآيــة: 1.

حواسه. لكن الهيفاء نظرا لاهتمامها بصحة ابنها، تدخلت باحتشام وقالت : أرى أن الليل قد مضى أكثره، وأنت أيها الشيخ متعب وسراج الليل لم يتعود على مثل هذا السهر لو تفضلت بالمبيت عندنا لكنا ممنونين. فقال الشيخ : بارك الله فيك وهذا لا يستغرب من امرأة كريمة مثلك. إلا أنني وعدت قريبا لي بهذا الحي. ووعد الحر دين. وسوف ألبي طلبك إن تركتني المنية عندما يعود سراج الليل.

ثم ودعها وودع سراج الليل وانصرف... عند ذلك خرجت الهيفاء من وراء الستر، والتحقت بابنها الذي بقي مبهورا بأحاديث الشيخ فقالت له : يا بني، سوف تتعلم أن ذلك ليس من الغريب في شيء وأني ما أرسلتك إلى القيروان (19) إلا لتتحاشى الوقوع فيما وقع فيه غيرك من الموبقات...] (63)

[ثم توجهت الهيفاء وسراج الليل لإحكام غلق الباب بعد انصراف الشيخ فسمعا جلبة ودق طبول مزعج ، فقال سراج الليل : يبدو أن بعض الجيران يحيي حفلا دينيا. فأجابته الهيفاء : إن الدين بريء من هذه الأفعال (64)] ...لقد ترك العامة الله وتشبثوا بأخشاب التوابيت وأبواب الزوايا. بل إن بعض سكان البادية يعتقدون النفع في الأشجار المهملة فيربطون فيها الخرق لقضاء الحوائج، ويدقون الدفوف عندها مع طلق البخور ووقد الشموع وتقديم الذبائح إليها. يا سراج الليل إن الخور قد أفضى بالناس إلى درجة أدتهم إلى الإقبال على جهلاء الزنوج. وذلك عندما يقع الصرع لإحدى النسوة على زعمها فيصرف رب الدار المصاريف

الباهظة لجهله وتوحشه ويستدعي العبيد إلى منزله ليسترضي ذلك الجاهل زوجته الجاهلة، فينتصب جوق العبيد المعبر عنه (بالصطنبالي) أو (البنقة) وتدق الطبول المزعجة وأطباق الحديد وهناك ترقص الجاهلات كرقص الدبوب والقردة ويذبحون الدجاج الأسود مع عدم ذكر اسم الله عند الذبح ويشربون الدم الذي حرم بنص الكتاب، ولا تسأل يا سراج عما يقع من اختلاط العبيد بالنسوان وما يتسبب عليه. وتوجد بدعة ببلاد مصر شبيهة بهاته تسمى (الزار)، كلها جنون في جنون وارتكاب أوزار، زاعمين أن بتلك الأعمال يخرج الجن من جسد المصروعة لأن طبيب الإنس عجز عن علاجها كما قيل :

ألا يا طبيب الجن ويحك داوني فإن طبيب الإنس أعياه دائيا

والسر الوحيد في وقوع هاته الأحوال الفظيعة هو تحكم النسوة الجاهلات على أزواجهن مع بلادة الرجال وظلمات صدورهم، يا سراج الليل إن دين الإسلام يتبرأ من هاته الأعمال القبيحة والجهل المفضوح لأن الله تعالى هو الفاعل المختار ولا يسأل عما يفعل، ولا يقدر أحد من الثقلين على رد حكمه ونفاذ أمره في خلقه، فهو الذي يهديهم، ويمرضهم ويشفيهم ويطعمهم ويسقيهم، ويميتهم ويحييهم، ويغفر خطاياهم ويجتبيهم " الذي خلقني فهو يهديني، والذي هو يطعمني ويسقيني، وإذا مرضت فهو يشفيني، والذي يميتني ثم يحييني، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين"[1]. نعم إن زيارة القبور بصفة الاعتبار والترحم على أهلها لا ينكرها عاقل

(1) الشعراء، الآيــة: 78.

خبير كأضرحة الصحابة الكرام الذين رفعوا منار الدين وجاهدوا في الله حق جهاده، أولئك الرجال الذين ابتهجت الدنيا بوجودهم ونزل وبل عدلهم على هذه المسكونة، فأحدث جنات من الأمن مشجرة بشجر الراحة فأثمر ثمر السعادة. فكيف لا تزار أضرحة هؤلاء الصناديد الأشداء الرحماء وكيف لا يترحم على تلك النفوس التي صعدت لروح وريحان وجنة نعيم. أما مسألة الوسيلة فقد خاضت فيها العلماء وأبدى كل رأيه فيها وقد جوز آخر علماء التفسير وهو المرحوم الإمام الألوسي زاده في تفسيره المسمى (روح المعاني) التوسل بالنبي خاصة. وما أنبل هذا العالم وأحكمه لأنه رأى في عصره أفكار الأمة قد سقطت والبدع في الدين حطت رحالها ووصلت الأمة في الوسيلة إلى حد التوسل بالدجالين الذين زعزعوا ركن الإسلام بحيلهم وغمغمتهم وسبحهم ومرقعاتهم وحبائلهم التي نصبوها لبسطاء العقول لصيد دراهمهم تحت ستار الولاية والتصوف المقلوب. فخصص التوسل بسيد الوجود عليه السلام سدا للذريعة كما كان يفعل مالك رضي الله عنه. وبالجملة فإن زيارة القبور بصفة الاعتبار والترحم قد شرع في الإسلام ليتذكر العاقل ما كان عليه صاحب القبر من الأعمال التي خدم بها أمته فيقتدي الزائر بالمزار، وتلك حكمة الزيارة. وهل تدري يا سراج الليل من هم أولياء الله الذين يجب على الأمة تعظيمهم واحترامهم؟ هم أهل الإيمان الكامل والتقوى الذين أخبرنا الله عنهم بقوله ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1]. فمن نزعت منه صفة التقوى وتلبس بما نهي عنه عند الشرع

(1) يونس، الآيـة: 62.

فهو زنديق ومبتدع بمقتضى النقل وحكم العقل. يا سراج الليل إن المخلوق لا يقدر على جلب النفع ودفع الضر ولو بلغ من الفضل والتقوى والهدى والحكمة لأن الخلائق كلهم تحت مشيئة الله تعالى فهو القابض على نواصيهم وجالب النفع والضر إليهم فقد قال وهو أصدق القائلين مخاطبا رسوله الأمين "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير"[1].

فعلى كل مؤمن أصابه الضر أن يوجه وجهه إلى فاطر السماوات و الأرض عالم السر والنجوى مجير الخلائق وسامع الشكوى ويمد يد الذلة والمسكنة ويدعوه بقلب خالص لإزالة ما به من ضر فهو الرؤوف بعباده الرحيم بخلقه القريب لمن دعاه المجيب لمن ناداه حيث قال عز وجل علاه " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان"[2]. لك يا سراج الليل أن تتوسل إلى الخالق بأشرف المخلوقات سيدنا محمد بن عبد الله ذلك الرسول الذي أنقذنا من ظلمات الوثنية، الذي أوذي فصبر، حتى ارتفع دين الله وظهر، وتقف عند التوسل في هذا الحد مع الاعتقاد اليقيني أن الله تعالى هو الفرد الصمد. بهذا أوصيك يا سراج الليل. والله على ما نقول وكيل. فقال سراج : يا أماه لقد صقلت أفكاري بحسن تربيتك وإرشادك الحسن وسأجتهد بإعانة الله في مزاولة العلوم حتى أصير بديني سورا للدفاع عن الملة والأمة والوطن.

ثم استأذن سراج الليل الهيفاء في الذهاب إلى غرفة

(1) الأعراف، الآيــة : 188.
(2) البقرة، الآيــة : 186.

النوم لينام فأذنته. ولما كان بصدد نزع ثيابه وهو مختل بنفسه في غرفة نومه جعل يقول :

غدا أسافر غدا أسافر ما أقرب الخير للمسافر
بالعلم يعطى الفتى مناه لأنه غاية المفاخر

ثم اضطجع ونام. وفي الغد قام باكرا فسمع والدته الهيفاء تقرأ سورة سبحان ولما وصلت إلى آية " وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا، ومن الليل فتجهد نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا"[1]. جعلت تكررها بصوت رخيم وأداء صحيح فعلم سراج الليل أنها تشير له بأن لا يتغافل عن تلاوة كتاب الله ولا سيما قرآن الفجر فأخذ المصحف وقرأ في سورة النساء ولما وصل إلى قوله تعالى "فأقيموا الصلاة، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا"[2]، طبق المصحف حيث وجبت صلاة الصبح فصلاها ثم قصد والدته فحياها وقبل يدها. فقالت له : يا سراج الليل لقد حان وقت السفر فكن ثابت الجنان قوي العزيمة متصفا بصفات المؤمنين الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله.

فقال سراج : أيتها الوالدة الحنون إنني سأبارحك في هذا اليوم على غاية من ثبات الجأش والصبر على مضض الفراق فإن قدر الله باجتماعنا في هاته الدار اجتمعنا وإلا "ولدار الآخرة خير ولنعم دار للمتقين"[3]. والدتي، إن السعادة لا

(1) الإسراء ، الآيـة : 78.
(2) النساء ، الآيـة : 103.
(3) النحل ، الآيـة : 30.

تنال إلا بالعلم وها أنا مسافر لطلبه،ما أسعد هذا السفر، ما أنفس هذا الاغتراب، جزاك الله خيرا أيتها الوالدة فلقد أحسنت في تربيتي فأنت إذا مدرستي الأخلاقية رحم الله أبي حيث انتخب له زوجة مثلك زكية الأصل نيرة النهى لأن صلاح العائلات وسعادة الأبناء لا يكونان ألا من انتقاء الزوجات الحصينات العفيفات. لا شقاء إلا من سوء الانتقاء لأن به تسقط بيوت العظماء وتفسد الأبناء وتحل الأرزاء. فما أسعد أبي في حياته، وما أعطر ذكره بعد مماته. فتبسمت الهيفاء وقالت : هكذا اعتقادي في سراجي المضيء.

ثم قالت : يا سراج قد قرب قدوم أستاذك الشيخ محمد النخلي فتعال نجمع حاجيات السفر، فوضعت له ثيابه البسيطة في صندوق عليه غلاف من الجلد وسلمت له إبريقا وقبقابا ثم تلت "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"[1]. فعلم سراج الليل أنها سلمت له الإبريق والقبقاب بقصد الوضوء للصلاة التي من شأنها النهي عن الفحشاء والمنكر. ثم نادت عبدا لها قائلة : يا أخي سعد. مشيرة إلى قوله عليه السلام "إخوانكم خولكم"، أطلب منك المسامحة في إخراج الفرس الأخضر من الإسطبل. ووضع السرج عليه لركوب سراج وكذلك تقديم الفرس الأشقر لوضع صندوق الأدباش عليه. فقدم سعد ما ذكر وبعد ذلك طرق الباب. فأجاب سعد : من الطارق؟ فأجيب : هو ضيفكم محمد النخلي. ففتح له الباب وإذا بالأستاذ ممتطيا جوادا من عتاق نجد فسلم فحيوه. ثم

(1) العنكبوت، الآيـة : 45.

ودع سراج الليل والدته وعبدهما سعدا فقالت الهيفاء : يا حضرة الأستاذ قد سلمت إليك قطعة كبدي وزهرة حياتي في هذه الحياة. "وما تفعلوا من خير يعلمه الله"[1]، فسيرا في أمن رب العالمين. فسارا يقطعان الفدافد والقفار ويسلكان السهول والأوعار. ولا زالا يجدان السير في ذلك القفار الذي قيل فيه:

قد فتهـــا في بيـــات لا أنيـس بـــه للجن فيه ضروب العزف والرجل
شاهدت فيه ضروب الوحش نافرة الضب والرال والريبـــال والـــورل
لو سار طير القطا فـــي جوه طلقـــا ضلت طريق الهدى من دونه المحل

فتعب سراج الليل من المسير، وقال : يا حضرة الأستاذ قد أوهت قواي ضروب الأتعاب. ولقد أصاب الصادق في قوله "إن السفر قطعة من العذاب". فقال الأستاذ : أي تعب نالنا يا سراج بالنسبة إلى تعب أسلافنا فقد كانوا مدة حياتهم يكيلون الأرض بالطول والعرض؟

خاضوا الفدافد عن جياد ضمر وبحب رفعـــة دينهم قد هـــاموا.

أولئك الرجال الذين أثرت سنابك خيلهم في الصخور ولو اجتمع نقع الرمال الذي طيرته حوافر خيولهم لتكونت منه جبال. أي تعب تعبنا وأي عمل عملنا؟ أمراؤنا وعلماؤنا وأغنياؤنا يركبون في هذا العصر عربات الخيل وأرتال البخار فكأنهم على سرر مرفوعة وزرابي مبثوثة، فإذا نزل أحدهم من العربة يضع يده على رأسه ويقول بصوت مخنث قد وقع لي يا مولانا نوع من هاته الأتعاب. إن السفر قطعة من العذاب ينزل

(1) البقرة، الآيـــة : 197.

هاته الحكمة على ذلك السفر الذي هو في حكم الإقامة. فتخوشن يا سراج لأن التخوشن من قواعد الإصلاح وكن رجلا سلفيا حبس هيكله الفاني على خدمة دينه وأمته لكي يحصلا أمنيته أو يبلغ حتفه. سر بنا وجد في السير فلقد تراكمت السحب على أديم السماء، ولعلنا نبلغ حيا من أحياء العرب قبل نزول المطر فنبيت هناك. فأطلقا العنان لخيلهما فلم تكن إلا ساعة من الوقت وإذا بنيران القرى في أحياء العرب تتلألأ، فوجها خيلهما إلى جهة ذاك النور، فخرج لاستقبالهما شاب لم يعبر في السن عقبة الثلاثين تلوح على محياه علامات الشجاعة وسيماء الكرم، باسم الثغر متهلل الوجه فحياهما بالسلام وقال : ما أسعد ليلتي هذه بمقدمكما، انزلا على الرحب والسعة. فقال الأستاذ النخلي : وعليك السلام أيها الأخ الكريم إنا لمسروران ومتشرفان بجنابك الأرفع وبيتك الأمتع فلقد دلتنا بشاشة وجهك على صفات هاشمية، وأصالة عصامية، وسماحة حاتمية، ثم نزلا. وأذن لهما في الدخول إلى خيمة كبيضة النعام. فدخلا وجلس رب البيت بإزائهما، فقال الشيخ النخلي : أريد أن تشرفني باسم هاته العائلة التي خرج منها مثل جنابك أيها الرجل السلفي؟ فتبسم رب البيت وقال : أنا عبد الخالق من عائلة العمري، فمن أي البلاد حضرة الأستاذ وهذا الشاب الذي معك ابن لك أو متبنى، شرف أخاك بالجواب رعاك الله؟

فأجاب : أنا ضيفك محمد النخلي قدمت من القيروان في هذا العام ببضاعة شريفة أعطيها لمن يقتنيها ورغب فيها بدون

عوض مقامها شريف وحملها خفيف. لكن من الأسف أني وجدت غالب أهل الجزيرة العرب معرضا عنها ولم ترج إلا عند بعض أفراد نور الله نهاهم، وقليل ما هم، وفي أثناء تجولي لرواج هاته البضاعة التي هي الإكسير الناجع لجميع الأدواء أرسلت لي سيدة عالمة فاضلة يقال لها الهيفاء واستدعتني إلى محلها بضواحي اليمامة فلبيت الدعوة فقدمت لي هذا الشاب وطلبت مني رفعه معي إلى القيروان بقصد تعاطي العلوم الدينية والدنيوية فقبلت وديعتها وسرنا من هناك حتى ساقتنا المقادير في هاته الليلة إليك. فقال رب البيت : ما شاء الله، هذا ابن السيدة الهيفاء العالمة الجليلة، لله ما أشرف هذا البيت، أتشرف بابن سيدة عالمة وأستاذ جليل، ثم خاطب الأستاذ بقوله: وهل بقي عندك شيء من هاته البضاعة النفيسة التي قدمت بلادنا لأجل رواجها؟ ومن أي نوع هي حفظك الله؟ فقال الأستاذ : هي بضاعة لا كالبضاعات، لأنها إذا نفق منها شيء زكت ونمت وغيرها يعتريها النقصان عند الأخذ منها حتى تنفد وتزول. ومثل جنابك من يرغب فيها ويتنافس في اقتنائها. فقال رب البيت : شرفني أيها الأستاذ بالتأمل فيها لعلي أكون من أهلها ومحبيها. فأدخل الأستاذ يده في صندوق له وقال : بسم الله، ثم أخرج سفرا مغلفا بالقماش الأحمر ورفع كتابين ضخمين ففتح رب البيت الكتاب الأول وإذا به مصحف، والثاني صحيح الإمام البخاري. فقال صاحب البيت : والله يا حضرة الأستاذ ما كثرت أرزاقي وارتفع بيتي وأخصبت فلاحتي وتحسنت صحتي وسعد أهلي وتنورت بصيرتي إلا بالعمل حسب ما في هذين الكتابين

الجليلين. نعم هي بضاعة وأي بضاعة إذا قابل الإنسان أوامرها بالسمع والطاعة ومن أعرض عنها صار من الأشقياء المستعبدين، وخسر الخسران المبين فقد قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[1].

يا حضرة الأستاذ الحكيم والله لو عمل المسلمون بما بين دفتي هذا المصحف وما حواه هذا السفر الثاني لرأيت كرة الأرض في قبضتهم وجملة الممالك تحت سلطتهم ولو علموا معنى الضرب في الأرض والسير والسياحة في آيات القرآن الكريم لانتشر منهم أفراد مثل حضرتك في كل حاضرة وبادية من ممالك الإسلام يعلمون الجاهلين ويذكرون الغافلين عملا بقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[2]. لكن العلماء تقاعسوا عن وظيفة الجهاد وتركوا العامة في شقاء مستمر. وأمراء الإسلام سابحون في بحر من الملاهي والانقسام العظيم فصار من كل عالم من علماء الإسلام التنعم باللذائذ الحسية وتشييد الدور وبذل المال في ارتفاع القصور واقتناء عربات الخيل من الطراز الحديث إلى غير ذلك من الإسراف والبذخ. وبالجملة فقد استعملوا من ضروب الإسراف وحب اللذات ما أوقع الأمة في الانحطاط الذي ذهب بعزتها ومجدها الذي أشاده الأسلاف وإنا لله وإنا إليه

(1) طه، الآيـة: 124.
(2) التوبة، الآيـة: 122.

راجعون. فقال الأستاذ النخلي : لله أبوك من حكيم أنبته الله نباتا حسنا في هاته الصحراء التي طالما داستها أقدام أصحاب واسطة عقد المصلحين. ودوت أرجاؤها بصهيل خيولهم في كل نهار وليل. وهي التي اكتسبوها عملا بقول الله" ومن رباط الخيل"[1] ولعمري إن هذا لمما يزيدني في الرجاء على حسن مستقبل المسلمين. نعم رجاء وألف رجاء حيث يوجد مثل جنابك في الجزيرة العربية. فقال رب البيت : وفقنا الله أيها الأخ إلى خدمة مصالح المسلمين. ولله الحمد على أن لم يجعلنا من اليائسين. ثم قدم لهما الطعام البسيط فأكلوا حتى اكتفوا وبعد تناول الطعام قال رب البيت : يا حضرة الأستاذ وابني سراج الليل هل لكما في السمر، فقد هبت نسمات السحر، وانقشعت السحب وصحت المطر، وجلس على عرش الزرقاء سلطان القمر، وأرغب أن يكون المسامر المفاتح جناب الأستاذ رعاه الله. فقال الأستاذ : أيها الرجل الكريم إن كل مؤمن غيور صار حليف الكدر والأسف في هذا الزمن، من أجل الفتن التي أحدثها أعداء الدين ببلاد اليمن، تلك الفتن الجسيمة التي حركتها يد انكلترا الباغية إذ مرادها بذلك تفريق كلمة الإسلام وتمزيق رابطتهم الدينية، فتن راجت على عقول أهل المطامع من أشراف المسلمين حيث وعدت كل كبير فيهم بالخلافة بتلك الجزيرة فتمسكوا بتلك المطامع وقالوا : إنما نحن أهل لذلك عملا بالحديث الشريف : "الخلافة في قريش". هكذا يقولون. وبأقوال تلك العدوة يغترون، ولو عقلوا ما فعلوا. أما سمعوا ورأوا إخوانهم المسلمين الذين هم

(1) الأنفال، الآيـة : 60.

تحت نير استعباد أوروبا مقيمون، وأمراؤهم بقيود الاحتلال الأجنبي مقيدون. فيا للأسف من حالة أهل اليمن في هذا الزمن. أولئك الرجال الذين حفظ التاريخ لأسلافهم ذكرا جميلا ومجدا أثيلا.

فقال رب البيت : وهل تقيس أيها الأستاذ أسلاف اليمن بالخلف؟ أين تلك النفوس التي كانت عزيزة الجانب، من هؤلاء البسطاء الذين صاروا هدفا لسهام فتن الأجانب؟ أقوام أعرضوا عن هدي الكتاب العزيز، وسفكوا دماء إخوانهم بتأثير دسائس الانكليز. قد أظهروا الانقسام الداعي إلى نزول صواعق الاستعباد على رؤوسهم ~ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم~[1]. فأجاب الأستاذ رب البيت بقوله : لا تيأس أيها الأخ الكريم فإن الانقسام لا يدوم، ولا بد من رجوع مجد الإسلام وانتباه القوم، فأذن لنا أيها السيد بالاضطجاع فقد وجب وقت النوم. فقام رب البيت وفرش لهما بساطا بسيطا، وناموا جميعا. ولما طلع الفجر قام الأستاذ فسمع سراج الليل يتلو سورة سبحان مكررا الآية : ~وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا~[2]. ثم أتم السورة ورفع يديه وقال : اللهم أرزق المسلمين اتحادا على نصرة دينهم وخدمة أوطانهم ووفق عصاة اليمن إلى الطاعة والالتئام وإخماد نار الفتنة. وأصلح حال إمام المسلمين وأرشده إلى انتخاب ولاة الأمور

(1) الرعد، الآيـة : 11.
(2) الإسراء، الآيـة : 80.

العالمين حتى لا تعم الفتن هاته البقاع الشريفة.

ثم سمع الأستاذ دوي تلاوة القرآن كدوي النحل فقصد جهة الأصوات فوجد ثمانية من الأطفال الصغار وست بنات على غاية من النظافة ووجوههم تتلألأ كالأقمار يتلون سورة الفجر أمام مسجد هناك ورب البيت يغريهم، فقال : أسعد الله يومك أيها الأستاذ أين ابنك سراج ؟ وما كاد أن يتم كلامه إلا وسراج الليل أقبل فقام رب البيت وأقام صلاة الصبح فأقبل الأطفال وأسرعت البنات وجاء العبيد فقدم رب البيت الأستاذ فصلى بالجماعة ثم تفرق كل إلى شغله وبقي رب البيت صحبة الأستاذ وسراج الليل فسأل الأستاذ رب البيت بقوله : أيها السيد هل أولئك الأطفال وتلك البنات الصغار الذين وجدتهم يتلون سورة الفجر ثم صلوا معنا من أهل بيتكم أم من أبناء جيرانكم؟ فقال : كلهم من عائلتنا فعندي منهم بنتان وثلاثة أطفال، وطفلان وبنت لأخي كمال المتوفى في هذا العام ومنهم أبناء إخوتي وبنات خالي. فقال الأستاذ : ما شاء الله ولا ريب أن نفوسكم نفوس رجال المائة الأولى ثم التفت إلى سراج وقال : تأملت يا بني في محاسن هذه التربية المتينة على أساس الدين "ولتعلمن نبأه بعد حين"[1]. ثم قال لرب البيت : جزاك الله خيرا أيها المفضال الكريم فلقد قابلتنا بجزيل إحسانك لا زال بيتك مفعما بالبر والإحسان، وقلوبكم مشرقة بنور القرآن. وأبشرك قبل الوداع بحسن مستقبل أبناء الإسلام لأني أرى حركة في المشرق تدل على عظيم شعور وشدة إحساس ظهرت الحركة الأولى يد رجل أفغاني

(1) ص، الآيـة : 88.

وفيلسوف عمراني نادى في العالم الإسلامي بوجوب الإصلاح ثم خلفه بعد وفاته إمام عظيم وأستاذ حكيم فقام داعيا ومجاهدا في سبيل الدين حتى توفاه الله وقلبه مفعم بالرجاء على حسن الاستقبال فاستيقظت نفوس المصريين وتحركت عواطف الهند واشرأبت أعناق الفرس وتنبهت الأفغان ونشط عظماء الترك. أما كفانا هذا دليلا على حسن مستقبل المسلمين؟ وإليك دليلا ثانيا وهو أن أوروبا قد ركبت في هذا العصر مركب الظلم والاستبداد مع الأقوام المغلوبين فأهانت الضعفاء وداست حقوق البؤساء والمساكين. ظهرت بمظهر التعصب الأعمى واستأثرت بجميع المنافع وحرمت منها المستحقين، ولا ريب أن العامل الوحيد لسقوط الممالك وتدميرها وإذلال الأمم واستعبادها هو الظلم والجور وسلوك مسلك الجبروت والتفاخر بالقوة على المستضعفين. تلك طبيعة الكون وسنة الله في عباده "ولن تجد لسنة الله تبديلا"[1]. فهذان الدليلان من أقوى الأدلة على تحسين حال المسلمين والمستقبل كشاف الحقائق. ثم قام الأستاذ وسراج لشد أحمال السفر فأظهر رب البيت الأسف العظيم لفراقهما وقال : بودي أيها الأستاذ أن تقيما في ضيافتي مدة شهر أو شهرين فلقد وقع دواؤك على دوائي يا نبراس العلماء المصلحين. فقال الأستاذ: وأنا أيضا لحليف أسف وسمير كدر على مفارقتك أيها المفضال الكريم ولكن سفري هذا لا يقبل التأخير لأن ابني سراج الليل في شوق عظيم إلى التعليم ولا يخفى أن المصلحة العلمية تقدم على سائر المصالح البشرية فأستودعك الله أيها الرجل الحكيم. ثم تصافحوا

(1) الفتح، الآيـة : 23.

وتوادعوا وسار الأستاذ وسراج يقطعان الفدافد والصحاري إلى أن لاحت لهما معالم بيروت فجدا في السير ونسمات بحرها تهب عليهما بشذاها العطر إلى أن وصلا إليها وشاهدا علم الإسلام خافقا عليها والبابورات التجارية راسية بمينائها وحركة الملاحين في تنزيل البضائع مستمرة. فقال سراج الليل : ما شاء الله ما هذه الحركة العظيمة يا حضرة الأستاذ؟ هذه حركة تمثل حزم الرجال وتبشر بحسن الاستقبال، فتبسم الأستاذ وقال : مهلا يا سراج إنك لم تر إلا نزرا يسيرا من حركة الرجال العاملين. ثم نزلا في بعض فنادق تلك المدينة ثم خرجا للتفسح في أرجائها الزاهرة حتى ساقتهما المقادير إلى المرور بمحل صبت أنفسهما إليه لحسن موقعه وإشراق الأنوار الساطعة عليه فوقفا أمامه وقفة الهائم الملتاع، الذي يريد الاستكشاف والاستطلاع، وإذا بشيخ فتح بابه وخرج متأبطا كتابا يسطع منه شعاع نوري عم ذلك الجسم اللطيف فقرب الأستاذ بأدب واختلس نظرة في الحروف التي في سفر ذلك الكتاب فقرأها فإذا هي هكذا "كتاب سعادة الدارين". فتقدم إلى جانب ذلك الشيخ محييا له بالسلام فرحب به بعد رد التحية بأحسن رد، ثم قال : مرحبا بالضيف وابنه تفضلا إلى محلكما على الرحب والسعة، فدخلا طبق الإذن فأمرهما بالجلوس ببهو على غاية من حسن الانتظام، ثم افتتح الشيخ الكلام فقال : من أي البلاد حضرتكما، آنسني الله بكما؟ فقال الأستاذ : أنا أخوك محمد النخلي القيرواني. وهذا ابنك سراج الليل ابن السيدة الهيفاء العالمة الجليلة من أهل اليمامة أرسلته معي بقصد تعاطي العلوم بالقيروان، فشرفنا بمعرفتك يا حضرة الشيخ المهاب؟

فقال : إني أخوكما مداح الحضرة النبوية حفظكما الله. فقال الأستاذ : مرحبا بخادم الحضرة المصطفوية وعاشق الذات المحمدية ولعمري إن هاته الصفة لتغنينا عن التعريف بالإسم وقدرك المعتلي عن ذاك يكفينا فما أسعد حظنا بملاقاة مداح خير البشرية وبوصيري القرن الرابع عشر. فقال الشيخ : حسن الله أحوالنا وتقبل أعمالنا. ثم تنفس الأستاذ النخلي الصعداء، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تذكرت أمرا أساءني إساءة لم يزل أثرها في نفسي إلى الآن وهو أني كنت اجتمعت في مصر بأحد العلماء العصريين فتجاذبنا أطراف الحديث حتى وصلنا إلى ذكر جنابك فاشمأزت نفس محدثي وأجابني: دعنا من ذكر أمثال هذا الرجل، أي عمل له مفيد حتى يذكر؟ فقلت له : اتق الله أليس هو مداح سيد الوجود وخادم واسطة عقد المصلحين صاحب التآليف العديدة، والأفكار السديدة. فضحك وقال: أفتعد هذا الرجل من المصلحين الذين نصبوا أنفسهم لخدمة المصالح العامة والأمور الهامة، أولئك الرجال الذين يحرضون على اقتناء العلوم العصرية ويصقلون الأفكار من الخرافات الوهمية. فقلت: نعم هو مصلح وأي مصلح أنبته الله نباتا حسنا في أرض بيروت التي كثر فيها طبع الكتب المسيحية وطعن المبشرين على الدين الإسلامي المتين، فكلما ظهرت ورقة من أعداء الدين إلا وظهر كتاب من تأليف هذا الرجل الأمين، نعم عندنا علماء قاموا بالدفاع عن ديننا بالأدلة العقلية الفلسفية فهم سلكوا مسلكا والعالم البيروتي سلك آخر وكلا المسلكين عظيمان فما بقي من وجه لتنقيص هذا الرجل إلا كونه محبا في سيد العالمين ولأجل أنه أكثر من الصلاة عليه. ولعمري إن هذا لا يصدر إلا من نقص

الحب أو عدمه في النبي الأمين فوجم الذي اعترض حيث شهاب رجم الرد عليه قد انقض. فقال حضرة الشيخ : يا أيها الأستاذ أنا لا أنفك عن خدمة أفضل العالمين بما يسعه مجهودي ما في محرك الحياة مع اعترافي بأن جملة ما كتبته وسأكتبه في حقه عليه السلام هي نقطة من بحر كمالاته التي يعجز البشر عن إيفائها حقها ولا يضرني استنقاص بعض الأفراد الذين أغرتهم زخارف الحياة الدنيا وغفلوا عما وراء هذا الجسم المادي من جلائل النعم وعظيم الجزاء في الحياة الباقية فما عسى أن يعيش الواحد منهم في هذه الدار الفانية لو فرض أنه يعمر مائة سنة وهذا نادر بين أفراد البشر في هذا الزمان لكن نفرضه من ندارته فإلى أين مثاله بعد المائة لا ريب أن مآله الموت.

ألا إن صرف الدهر بحر نوائبه وكل الورى غرقاه والموت ساحله

بل نعد هذا الشخص من الذين لا ينطبق عليهم المصراع الأول ولو أن النوائب في هذه الحياة الدنيا لا يسلم منها مخلوق على الإطلاق. دعنا من هذا ونفرضه وأنه عاش مدة تلك الحياة الطويلة على غاية من الصحة وحسن الرفاهية مع الثروة الواسعة والاحترام العظيم ثم سطا عليه الهرم فأورد حتفه ففتح بصره ووجد نفسه في عالم لا يشبه العالم الذي كان فيه. وما أبعد الشبه عن العالم الباقي وعالم الفساد، نظرا إلى العالم الروحاني. وتذكر قول المبدي المعيد : "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"[1]، يردد النظرات في ذلك الكون الذي

(1) ق، الآيـة : 22.

لا يحد ويتذكر صدق القرآن: "هذا يومكم الذي كنتم توعدون"[1]، ليت شعري وليتني ما كنت أدري ما حجته وجوابه عند ربه: أيقول إني كنت في تلك الدار من أفراد الحزب الذين لقبوا أنفسهم بالأحرار؟ فيندفع للعذاب، وتتقطع به الأسباب، ويتمنى منية أهل الجحيم: "يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين"[2]. فما أسوأ حال الجاحدين في يوم الدين. وقد يوجد قسم آخر من المسلمين يستنقصون أعمال الأسلاف ويركبون مراكب الشطط والخلاف، يسخرون من العلماء الأقدمين ومن تآليفهم التي لولاها ما عرفنا الفقه ولا التوحيد ولا العلوم الدنيوية كعلم التاريخ والجغرافيا والهندسة إلى غير ذلك من علوم الدنيا والدين. أليس من الواجب على كل منصف أن يحترم الواضع الأول للشيء المفيد ولو أن الأواخر هذبوه وأوصلوه إلى حد الإتقان؟ فشكرا لهم والفضل للمتقدم. وتراهم أيضا ينكرون صدور الكرامات من أهل التقوى ولو عقلوا ما فعلوا لأن الرجل الموحد يستغرب في صدور خوارق العادات بأمر خالق المخلوقات على يد عبده التقي. نعم إني لا أنكر أنه توجد بعض كتب مطبوعة وخطية فيها مساخر وأكاذيب يتبرأ منها الدين ينسبونها إلى الولي الفلاني وهي من الافتراء والضلال المبين. وليت أهل هذا القسم وقفوا في الإنكار والجدل عند هذا الحد بل كل منهم توسع في الإنكار والجدل، حتى ضل وأضل. ولا ريب أن هاته الأحوال والصفات هي مقدمات للإلحاد نعوذ بالله، فنسأله تعالى من فضله وعميم رحمته أن يمن على الأمة الإسلامية بأطباء للنفوس والأرواح فيها مثل حضرتك أيها الأستاذ العليم

(1) الأنبياء، الآية: 103.
(2) الأنعام، الآية: 27.

لتسترجع مجدها وتنيب إلى ربها " من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون"[1]. ثم التفت حضرة الشيخ إلى سراج الليل وقال : يا بني هل أنت حامد لهذا السفر ومنثلج الفؤاد بصحبة هذا الأستاذ العظيم؟ فقال سراج : نعم يا خادم الجناب المحمدي إن جوارحي كلها ألسنة لاهجة بالشكر والثناء على الخالق الحكيم، الذي سخر لي من فضله هذا الإمام الكريم، ووفقني إلى تعاطي العلم الذي سأنال به السعادة بعناية الله إن كانت لي سعادة في هذه الحياة، لكن آه يا مولاي على ما أصاب أمة الإسلام من الانحطاط الجسيم في هذا الزمان، تفرقوا عن محجة الدين فاستولت عليهم الأوهام الباطلة، ورسخت في أذهانهم خرافات الجاهلين، حتى وقعوا في حبائل الدجالين، وصاروا أذلاء مستعبدين، ومن عجيب الأمر أن صفة الإحساس فقدت من أغلبهم فراق لهم الاستعباد، وناموا على شوك القتاد، كبراؤنا سكنوا إلى الترف والراحة، وأقيمت في كل قطر من أقطار المسلمين مناحة. وإذا جاد الزمان بفرد من المصلحين، ونادى قومه بلسان النصح والرجوع إلى أصل الدين، قوبل بالازدراء من الخاصة ونهاية المقت من العامة، وينسبونه إلى كل صفة رذيلة وعقيدة فاسدة، كقولهم زنديق ملحد وهو معتزلي جبري جهول، إلى غير ذلك من العقائد الفاسدة وأنواع الضلال. ولطالما سعوا بالمصلحين إلى الحكام الظالمين، فقابلوهم بضروب العقاب كالنفي والسجن والتضييق عليهم حتى صاروا من الهالكين. هذا حال مرضى القلوب مع أطبائهم في أحوال هؤلاء الناس الذين ضرب بينهم وبين الإصلاح بسور من حديد القلوب وجنادل الأفكار. ويكاد أن يتقطع قلبي حسرة على ما نال أهل

(1) الزمر ، الآيــة : 54.

الإصلاح من مكر الجامدين وإذاية الجاهلين، ويخامرني الإياس وأرى أن إصلاح أمتنا ضرب من المحال حتى قرأت قوله تعالى "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين"[1]. فرجعت إلى الرجاء وقطعت حبل الإياس. والحمد لله على الاتصاف بصفة المؤمنين. (65)

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

(1) العنكبوت، الآيـة: 2.

رائد " الشّعر العصري "
و "حامل راية الشّعر الإصلاحي"

يتفق المهتمون بأدب صالح سويسي أنه كان شاعرا أكثر منه ناثرا. فلا يمكن الحديث عن آثاره دون طرق هذا الجانب الهام الذي يرتكز عليه تراثه، وفاضت به قريحته، ذلك الشّعر الذي ترجم عن وجدانه، والذي سخّره لرفع راية الإصلاح الديني والاجتماعي.

عرف الشّعر في نهاية القرن التاسع عشر ومستهلّ القرن العشرين غزارة ووفرة عززتهما الصحافة. فلم يَخْلُ أيّ عدد من أعداد صحيفة أو مجلّة من قصيدة أو أكثر. فالأديب في ذلك العصر هو الشّاعر قبل كل شيء. ورغم تلك الوفرة، كان الشّعر يعاني من جموده شكلا ومضمونا، لا يكاد يخرج عن المواضيع التقليدية، بل أغرق في أبواب المدح والرثاء، والتهنئة والإخوانيات، وإعلان الولاء للسلطة... إلى حدّ الابتذال.

رائد الشّعر العصري

عندما تأسست جريدة "الحاضرة" سنة 1888م، فتحت صفحاتها أمام الشّعراء ونشرت إنتاجهم. إلا أن القصائد تكاثرت وقلّ منها الجيّد، "وقد استولى عليها البديع المصطنع، فضعفت معانيها، وتضاءلت فصاحتها، وتهلهل نسجها". كما ظلّت مواضيعها متشبّثة بالنهج القديم، مما جعل المسؤولين

عن الجريدة يعلنون عزمهم على التوقف عن نشر هذا الشّعر، معللين ذلك بضيق المساحة. فانقطعت مدّة ثمّ بادرت إلى إغراء الشعراء بالثّورة على أنفسهم، ونبذ التقليد السائد، والبحث عن مواضيع جديدة، وفتحت بابا جديدا من الشعر أطلقت عليه تسمية " الشّعر العصري ". (36) ونشرت أول قصيدة تحت ذلك العنوان في عددها الصادر يوم 2 أكتوبر 1900، للشاعر صالح سويسي، يقول فيها :

أفيقُوا يـا بَنِي وَطَنِي الْمُعَلَّى فَقَدْ طَـالَتْ بِكُمْ سِنَةُ الرُّقَـــادِ
أفيقـوُا واذْكُرُوا تَـارِيخَ مَجْدٍ لآبَـــاءٍ لَهُـمْ بِيضُ الأيَـــادِي
فَقَدْ كَانُوا ذَوِي عَزْمٍ وَحَزْمٍ وَعِلْمٍ قَدْ أضَـاءَ عَـلَى الْبِـلاَدِ
وَهُمْ عَمَرُوا وَسَاسُوا الْمُلْكَ حَقّاً سِيَـاسَةَ قَـائِـدٍ سلِسَ الْقِيَـادِ
فَدَانَ النَّاسُ وَامْتَثَلُوا وَطَاعُوا وفَـــاءوا لِلتَّمَـــدُّنِ وَالرَّشَـــادِ
وَهُمْ عرفُوا الْعُلُومَ وَدَوَّنُوهَـا وَهُـمْ مَلَـؤوا بِعِلْمِهِـمِ النَّـوَادِي
وَهُمْ أخذُوا عَنِ الْيُونَـانِ عِلْمًـا تَقَـدَّمَ أيَّ شَـوْطٍ عَـنْ مَبَـادِي
(...)
فمـا لـي لا أرى إلا بقـايـا كساهـا الحزن أثـواب الحـداد
تغيرت البـلاد ومن علـيهـا ودون رجوعنـا خرط القتـاد
تلبـد في آفـاق الفكر جهـل فـأوجب كـل شر فـي العبـاد
سواكم فـاز بالقـدح المعلـى وأنتم، مـا لكم حلفـا الرقـاد؟
مدارسهم أوانـس من علـوم ترقـي النـوع والمقصـود بـادي
صحـائفهم صفـائح للأعـادي وعـائد وصلـة لـذوي الـوداد
مجالسهم تـدور على صـلاح عمومـي مقـررة المبـادي
ونحن على النقيض أليس نحسا بطالعنـا وميـلا عن رشـاد؟

ويعرف الشيخ الفاضل بن عاشور الشعر العصري بقوله : ˝ ابتدأت الصحافة تطلق هذا اللقب على الشعر الاجتماعي والحكمي الذي يقصد إلى التذكير بالمجد، والتوجه إلى مسلك النهضة والتحرر والتجدد. وبدأ الأدباء والمفكرون ينحون هذا النحو في الأدب عنايتهم وإعجابهم، ويتطلعون إلى مجاراة شعراء الشرق في ذلك السبيل، حتى كان الشيخ محمد النخلي هو الذي فتحه لهم بسمو همته وطول باعه، بقصيدة تجاوزت ثمانين بيتا، نشرتها جريدة (الحاضرة) سنة 1901 (67) . ثم كان الشيخ الخضر أول من سار بعده على ذلك النهج. فنشر في مجلة (السعادة العظمى) قصيدة بعنوان ˝الشعر العصري˝. وتلقف تلك الطريقة شاعر القيروان صالح سويسي، وكانت منسجمة مع سخطه على المجتمع وثورته في سبيل الإصلاح، واعتزازه بالمجد الإسلامي. فبدأ يتغنى بالقصائد المتوالية في التنديد بسوء حال الأمة الإسلامية، والفرق الواضح بين عظمة ماضيها وحقارة حاضرها. فكانت أنغامه كلها تحرقا وعويلا يظهران من عناوين قصائده : ˝السلف والخلف أو صيامهم وصيامنا˝، ˝دمعة على اللغة˝، ˝معاول الخلف في صروح الأجداد˝...وقد طبع مجموع شعره بتونس سنة 1911 باسم (زفرات الضمير)˝.

ويضيف الشيخ ابن عاشور : ˝...ويعتبر صالح سويسي في هذه الفترة لسان الإحساس القومي، والنهضة الفكرية، على ما يعتري شعره من سقطات صناعية أحيانا، بسبب ضعف تكوينه الأدبي. وإذا كان غيره من الشعراء قد شاركه في هذا المنهج، فقد تقدمهم بأن جعله منهجه الملتزم، وبأن

كان أقوى اندفاعا فيه إلى درجة استنزال الفناء على الأرض، فكان بذلك حامل راية الشعر الإصلاحي."

وفي سنة 1904، ألغي الضمان المالي الذي كان مفروضا على الصحف. فانتعشت الحركة الأدبية والفكرية بظهور صحف جديدة، ووجد دعاة الإصلاح الفكري والديني والاجتماعي مجالا رحبا للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، وأصبح الشعر العصري حركة أدبية قائمة بذاتها، شعارها الدعوة الإصلاحية والتجديد الأدبي. وأخذت الصحف والمجلات تتنافس في نشر القصائد تحت ذلك العنوان. فنشرت جريدة (النهضة) قصائد للشيخ سالم بو حاجب، ونشرت مجلة (السعادة العظمى) قصائد للشيخ محمد الخضر حسين، وبرزت أسماء مثل محمد الحشائشي، وعبد العزيز المسعودي... وقد حاول هذا الأخير التنظير للشعر العصري وتوضيح أغراضه التي تميزه عن الشعر التقليدي، فكتب مقالة بمجلة (السعادة العظمى)، العدد 19–20 شوال 1322هـ/1904م، جاء فيها أن الشعر العصري "استعمل مرسما للتمثيل، وقام بوظيفة السينماتوغراف والفوتوغراف معا، فالبارع اليوم من تنفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان المرسن، ويصوغ لها على قدرها قوالب من الألفاظ والتراكيب. وبالجملة يصور في أشعاره ما شاء حتى يخال من يقرأ أشعاره أنه ينظر في لوح من الألواح المصورة بقلم رسام وفرشاته".

وتجاوبت الصحافة مع تلك المحاولة التنظيرية، فقدمت مجلة (خير الدين) منذ عددها الأول (1 صفر 1324ه/1906م)

تعريفا للشعر العصري جاء فيه : "الشعر العصري هو الذي يكسب النفوس تحمسا، ويذكرها بالنخوة والشهامة فتهب إلى القيام بواجب الحياة، وتسعى لنوال الخيرات، وأكثر ما يكون الشعر الرقيق مؤثرا في الأمم التي لها شعور رقيق وإدراك لطيف."

وببروز تلك الحركة الأدبية الجديدة، اكتمل التواصل الفكري والروحي بين المشرق الإسلامي ومغربه. فبعد الالتحام بين الحركة الإصلاحية التونسية ونظيرتها المشرقية، خاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس، جاء دور الالتحام الأدبي، إذ لا شك لدينا أن حركة الشعر العصري هي وليدة النهضة الشعرية التي تزعمها أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في مصر. وربما كان التأثر بحافظ إبراهيم أقوى لما امتاز به شعره من تجديد في الأغراض والمعاني، ولقربه من الحركة الإصلاحية بالمشرق "وهي صاحبة السلطان الأعظم في نهضة الفكر بتونس"، كما يقول الشيخ ابن عاشور. وهو يضيف في نفس المعنى : "...ولعل أقوى الآثار الشعرية في هذه الحقبة، أثرا في توجيه الشعر بتونس وجهة جديدة، بعد قصائد حافظ إبراهيم في الشيخ محمد عبده، إنما هي قصائد (غادة اليابان) و (العمرية) و (لسان حال اللغة العربية) و (استقبال رأس السنة الهجرية)".

ونحن نؤيد ذلك الرأي، بالنسبة لصالح سويسي على الأقل، فقد تأثر بأسلوب حافظ إبراهيم ومعانيه وأغراض شعره، فالعلاقة بين قصيد حافظ (لسان حال اللغة العربية)

وقصيد صالح سويسي (دمعة على اللغة) لا تتطلب بحثا أو تحليلا. وكذلك الشأن لعديد قصائده، خاصة في فترة بداياته الشعرية. ولعله من المفيد التعمق في استجلاء العلاقة بين الشاعرين.

بين صالح سويسي وحافظ إبراهيم

تدل مختلف القرائن على وجود علاقة متينة بين أدب الشاعرين، بل هي علاقة روحية عميقة. فقد نشر صالح سويسي نصوصا لحافظ إبراهيم في كتاب (فجائع اليتامى والبائسين)، ونظم تذييلا لبعض قصائده مثل (العمرية)، وتأثر لوفاته فرثاه متحرقا... وبمطالعة شعر صالح سويسي نلاحظ أنه قلده في جل أغراضه، واستلهم كثيرا من مواضيعه ومعانيه أحيانا، وندرك أنه جعل من حافظ معلمه وإمامه في نظم القريض.

وعند محاولة استقصاء مدى تأثر صالح سويسي بحافظ إبراهيم، يستوقفنا الشبه الغريب في حياة الأديبين، حتى يخال لنا في بعض المواضع أننا نطالع حياة توأمين عاشا نفس الظروف والملابسات. فهما ندان، إذ ولد حافظ (حسب ما يذكره أحمد أمين) حوالي سنة 1872وولد صالح سويسي حوالي سنة 1871م. وتوفي والداهما وهما طفلان، وقاسيا من المجتمع المحيط بهما، ووجد كلاهما ملاذا في المطالعة وتثقيف العقل بالكتب والمجلات، ونال كل منهما نصيبه من محن الحياة، وتأثرا بالفكر الإصلاحي الاجتماعي والديني، وحظيا برعاية أعلام الحركة الإصلاحية، فنال حافظ عطف الشيخ محمد عبده، وأحرز صالح سويسي رعاية الشيخ

محمد النخلي... وغير ذلك من أوجه الشبه بين حياة الرجلين وأخلاقهما كثير، خاصة في تكوينهما الفكري، إذ تزودا من معين واحد، وتخرجا من نفس المدرسة الفكرية.

فلا غرابة إذن أن يجد صالح سويسي في شعر حافظ إبراهيم صورة من نفسه ومن عواطفه ومن اهتماماته. وأن يجد في تقليده تعويضا عن قصور تكوينه الأدبي. ومن تأثر صالح سويسي بحافظ إبراهيم أنه نحا منحاه في التجديد الشعري، فلم يحاول التجديد في البحور والأوزان، ولا في الأسلوب والبيان، ولا في التفكير والخيال، وإنما جدد في شيء هو فوق ذلك كله، إذ جدد في موضوع الشعر وأغراضه، معبرا عن اهتمامات عصره وأماني قومه، معتبرا أن الأدب رسالة قبل أن يكون فنا. ففتح باب الوطنيات والاجتماعيات والسياسيات، وأخرجها في شعر حماسي ملتهب "يفعل في النفوس ما لا تفعله الخطب المنمقة والمواعظ الأنيقة".

وقد تأثر صالح سويسي لوفاة حافظ تأثرا بالغا، عبر عنه في مرثية حزينة جاء فيها :

هوى كوكب الشرق المنير على الورى ففاضت دموع الخلق كالنيل إذ جرى
وأظلم هذا الكون من فقد شاعر بآدابه روض القريض تعطرا
ففي الشرق لوعات وفي الغرب حسرة وكل فؤاد بالأسى قد تفطرا
وفاضت دموع الحزن من كل مقلة على فقد من أحيى الشعور وفكرا
...
فيا مصر إن كان المصاب مجسما ففي عالم الإسلام أضعاف ما جرى
وفي القيروان الحزن أضحى مخيما وأصبح جو الشعر أربد أغبرا
وتونس في ثوب الحداد أسيفة على فقد من أحيى الشعور وفكرا

أغراض شعره

تميز صالح سويسي عن معاصريه من الشعراء التونسيين بالسبق في تجديد موضوع الشعر وأغراضه، فامتاز بالتزامه بالدعوة الإصلاحية وحماسته الوطنية، في زمن كان فيه الشعور الوطني مكبوتا ويعد من الجرائم التي تدخل تحت طائلة القانون، وكانت فيه الدعوة الإصلاحية همسا في النوادي، لا تحظى بإجماع الطبقة المثقفة من أهل العلم والسياسة ورجال الدين.

أما من الناحية الشكلية، فقد بقي تقليديا، ملتزما بالبحور والأوزان المتعارف عليها. فنجد له قصائد خليلية، وأخرى موشحة، وغيرها تامة أو مشطرة أو مخمسة...كما أنه مدح ورثى وتغزل ووصف الطبيعة... وإن كان أكثر شعره جادا، فله قصائد فيها الفكاهة والدعابة والنكتة ... وقد بقي وفيا لذلك المنهج التقليدي مقتنعا به. وهو يقول في تقريظه للمجلة الزيتونية (نشرت القصيدة في جوان 1937) :

يقولون في التجديد للشعر رونق وكل قديم فهو كالميت في القبر
وما أنا إلا بالقديم مولع فهل من قبول إن بسطت لكم عذري.

وقد حاول مصطفى الحبيب البحري إحصاء المواضيع التي طرقها صالح سويسي في شعره، معتمدا أساسا على ديوان (زفرات الضمير)، فأحصى فيه المواضيع التالية :

- الموازنة بين ماضي تونس المجيد وحاضرها المؤلم.
- الموازنة بين الواقع العربي والواقع الأوروبي.
- محاربة الجهل والدعوة إلى العلم، والنداء إلى الإقبال على العلوم العصرية.
- التذكير بأمجاد الماضي والحث على التخلص من ذل الحاضر
- الدفاع عن اللغة والدين.
- التصدي للأوبئة الأخلاقية.
- الدعوة إلى الوحدة القومية... (66)

ومن سمة شعر صالح سويسي عدم اقتصار القصيد على موضوع موحد، بل يشمل عدة مواضيع، يربط بينها المضمون الوعظي والغاية الإصلاحية. فنراه يستعمل طرقا متعددة للتأثير واستخلاص العبرة، كالتنبيه، والتهويل، والتهكم، والإنكار، والأمر، والنهي، والمقارنة بين الأضداد... وهي سمة يشترك فيها شعره ونثره.

ويفيدنا الشيخ الفاضل بن عاشور أن الشيخ صالح سويسي قد تفاعل مع أحداث المقاومة الليبية للاحتلال الإيطالي، ويقول في ذلك: "...فاندفع صالح سويسي وسالم بن حميدة والصادق الفقي يصرفون حماسهم في وصف المعارك ومواقف الأبطال ويتطاولون على الغارة الإيطالية بالتهكم والتحقير والتحدي، فأخرجوا ضربا من الشعر صورت فيه الحرب الطرابلسية بمقابلاتها الدامية وبما وراء المقابلات من عواطف وانفعالات على طريقة شعر الملاحم..."

ومما نظمه صالح سويسي في هذا الغرض قصيدة

(جريح الحرب) التي نشرها بجريدة (التونسي)، عدد 68، 15 ربيع الأول 1329هـ، وقدمت لها بما يلي: "صاغ بلبل شعراء القيروان الصداح صديقنا الشيخ صالح سويسي تغريدا حماسيا يستندي به أكف الكرماء لإعانة الهلال الأحمر ولذلك بادرنا لنشره تحريكا للهمم وإيقاظا للشعور، قال يصف الجندي في موقف القتال...

شهم حوى في سبيل الله رضوانا ... قد خاض من بأسه في الحرب ميدانا
بالحزم مرتفع، بالعزم مندفع ... يحمي بصارمه دينا وأوطانا
أبدى العجائب في الحرب التي شهرت ... على بني وطنه ظلما وعدوانا
طارت له من رصاص البغي أربعة ... فصادفت منه أعضاء وجثمانا
فسال منه دم بالطهر ممتزج ... قد فاق من جنسه في العز ألوانا
فخاطب الجند في الهيجاء مبتسما ... لا تجزعوا وثقوا قد كان ما كانا
هذا الوسام الذي تصبو القلوب له ... دع عنك أوسمة صيغت وتيجانا
هيا احملوني نحو (الهلال) فما ... أبغي عن الحرب إحجاما وسلوانا
ولا أبالي إذا ما صرت منجرحا ... فإن لي من رضى الرحمن غفرانا
ولست أسأل عن أهلي وعن ولدي ... إذا وجدت بأهل الدين إحسانا
هذا الدواء أتى من معشر شهروا ... بين الكرام وأقوى الناس إيمانا
أهلا بكم يا كرام المسلمين ويا ... من قد أشادوا إلى الإسلام أركانا
لا تبخلوا في اكتتاب (الهلال) بدا ... فسوف يصلى بخيل القوم نيرانا
إن اليتامى وجرحى الحرب كلهم ... يدعو لنا ذلكم سرا وإعلانا
إن كنتم تطلبون الحج فاغتنموا ... كيما أعود إلى الهيجاء جذلانا.

ويشير الحبيب بن فضيلة إلى تفاعل صالح سويسي مع القضية الفلسطينية، فيذكر أنه كتب في هذا الموضوع

قصيدتين، الأولى بعنوان (في سبيل فلسطين) وعدد أبياتها 25 بيتا، يقول فيها :

نبكي فلسطين والتعذيب ألوان مما يقاسيه أشياخ وشبان
تجري الدماء على أرض مقدسة فيها إلى الرسل تاريخ وأوطان

والثانية وعدد أبياتها 17 يقول فيها :

أهل المظالم لا ينجون من خطر ولو علوا فوق هام الشمس والقمر
كم من عقارب قد دبت بشوكتها في ظلمة الليل للإضرار بالبشر. (68)

مؤلفاته الشعرية

- **منجم التبر في النثر والشعر**، ألفه سنة 1889م، وجمع فيه " الكثير من نظمه". طبع بمصر سنة 1906م.
- **زفرات الضمير**، نشر بتونس سنة 1911 م.
- **تشطير رباعيات الخيام**، لم ينشر.
- **الأناشيد المكتبية**، طبع بتونس سنة 1926م.
- **ديوان صالح سويسي القيرواني**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979م.

منتخبات من شعر صالح سويسي القيرواني

من ديوان
زفرات الضمير

سلسلة «ذاكرة وإبداع» [15]

تقديم الكتاب

أقدم هذا الكتاب إلى رجل الإخلاص والصدق والعمل منشط المشروعات الأدبية ومحيي مجد الأمة العربية زعيم النهضة التونسية السيد " عبد الجليل الزاوش" راجيا من ضميره السليم حسن قبوله.

أقدم ذا الكتاب إليك يا من ... تفرد في الإيالة بالجميل
منير القطر مفخرة وعزا ... بما أوتيت من نفع جزيل
وأبرع كاتب لم يأل جهدا ... يذب عن المصالح بالدليل
وأجدر بالكتاب وكل خير ... بأن يهدى إلى (عبد الجليل)

صالح سويسي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

" فاتحة الكتاب "

رب نوّر قلبي بنور معرفتك. أرشدني إلى طريق الحق حتى أعمل بطاعتك. ولا تحرمني من نوال فضلك ورحمتك. رب ثبت قدمي أطلق لساني. ولا تفتني في عقيدتي وإيماني. رب زدني من الإيمان. ونورني بنور الإيمان. واهدني بهدى الإيمان. أحيني بحياة الإيمان. وأمتني على الإيمان. رب أنت خالق الخير والشر وبهما قدرت. رب ظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. رب إنك بعثت رسولك محمد إلى سائر الأنام. وجعلته خاتم الرسل الكرام. فاختم أنفاسي على دينه وحبه يا ذا الفضل والإنعام. ووفقني إلى الإعانة على إتمام هذا الكتاب. يا معين يا وهاب. وسلام على إمام المرشدين والحمد لله رب العالمين.

لك الحمد يا من أمرت بالنصح والإرشاد. وحرضت المؤمنين على التعاون لما فيه مصلحة البلاد والعباد. حيث قلت في الغرض الأول وأنت أصدق القائلين ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وفي الغرض الثاني وأنت العالم بالسر والنجوى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾. والصلاة والسلام على الذي صدع بأمر مولاه على رأس الأربعين سنة. ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. وعلى آله وأصحابه. الذين تأدبوا بآدابه. ورفعوا منار الدين. حتى أتاهم اليقين. (أما بعد) فيقول الفقير إلى سبحات الفيض الرباني. عبده صالح بن عمر سويسي الشريف القيرواني. أنه لا يعزب عن أهل النهى أن الأمة الإسلامية قد حلقت في جو المعالي زمنا طويلا وأخذت مركزا مهيبا في هذه الكرة التي كانت تميس عجبا بما قام به رجال الأمة من الإصلاحات العظيمة والعدل الذي هو أساس العمران والسبب الوحيد لحياة الأمم وذلك عندما اعتصمت بحبل الدين وعملت بإرشاداته الفاخرة. وفهمت معنى ﴿الدنيا مطية الآخرة﴾. ومكثت أمتنا التي كانت عزيزة الجانب والأسيفة الآن متحدة على المنافع مقبلة على الإصلاح مدبرة عن الفساد ماسكة كتاب الله بيد والسنة باليد الأخرى إلى أن حل دور الشقاق فتفرقت أفرادها أيد (كذا) سبا وحل الذل بعد العز ووقع الضعف مكان القوة وتلك سنة الله في القوم الذين غيروا وعن أوامره أدبروا ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. وقد صرنا بما كسبت أيدينا سابحين في يم من الانحطاط معرضين عن الإرشاد الصحيح وفهم حقيقة الدين متشبثين بأذيال الأوهام الفاسدة. أفكار خامدة. وقريحة

جامدة. فخطباؤنا خطب علينا. وكبراؤنا ساقوا البلاء إلينا. والبدع في الدين حطت رحالها. فقامت عصابة من أهل الدين يرشدون المؤمنين. ويذكرون الغافلين لأن نفوس البشر قد يعتريها الكسوف أحيانا في شموس إدراكاتها ويسبل عليها حجاب من الغفلة حتى تصير لا تحس ولا تعي فتمرح في فلاة من الهلاك ذاهلة من الألم المحيط بها إحاطة الخاتم بالخنصر. فإذا أرشدها المرشد أحست بالألم فتزفر زفرات يندلع لهيبها الذي لو مر على البحار لجفت أو على الغابات لم تبق فيها يابسة إلا واحترقت. وقد كثرت في هذا الزمان زفرات التألم في جميع العالم الإسلامي وكتبت التقارير الضافية ونظمت القصائد المؤثرة ونشرت على صحائف المجلات والجرائد التي تجوب الأرض بالطول والعرض. وكان هذا العبد الضعيف من جملة من خاض مع تلامذة المرشدين فنظمت وحررت قصائد ومقالات نشر بعضها في الصحف والبعض لم ينشر فارتأيت أن أجمع طائفة منها في هذا السفر الصغير مع اعترافي أن هاته التحريرات والمنظومات قد برزت من فكر قصير ودماغ مستعد لتلقي ضربات من أيدي قساة المعاندين فإما أن تزيده في التفكير. وقوة التحرير. وإما أن تقضي عليه القضاء الأخير. وما ذلك في سبيل خدمة الأمة وحرية الفكر بعسير. وسميت هذا المجموع "زفرات الضمير". فمن أعرض عن زفراتي وسئمت نفسه منها فليتركها تحرق صاحبها لأني لست بمسيطر على الأفكار. ولا حاملا للسيف البتار. وإنما قصارى ما عندي أن أكتب ولا أفتح العيون وأقول ولا أوسع الآذان. ولست بقادر على عقد الألسنة عند الذم وإطلاقها في المديح والسلام على الموافق والمنتقد من صاحب الزفرات.

في النصح والإرشاد

عيد النحر وخطاب الضمير

ما لي أراك قد استبشرت بالعيد ... وأنت بين الورى في سوء تنكيد
مهلا رويدك إن الخلف أوقعنا ... في عظم معضلة حفت بتهديد
هل أنت تفرح بالأعياد تقطعها ... وحالك اليوم لم يقرن بتسديد
أضحت مصالحنا مثل "الضحايا" لها ... في كل مجزرة ذبح بتشديد
في كل يوم نرى للنائبات يدا ... أظفارها نشبت في جسم مفوود
لا بالحوادث صوت الوعظ يوقظنا ... من نومة لم تزل آلامها تودي
يا أيها الغافل الزاهي بموسمه ... زهو الطيور إذا غنت على العود
قد رفرفت فوق غصن الروض صادحة ... ردحا ففاجأها الصياد في البيد
فلم تكن لحظة إلا وقد وقعت ... في الأرض مخضوبة الأطواق والجيد
قم ردد اللحظ بين الجنس معتبرا ... لا تلف غير امرئ بالذل مفصود
آه وليس بمجدينا التأوه مذْ ... حل التألم في أحشاء مجهود
فالحر يغتبط الأموات إن قبروا ... لأنه ليس في الدنيا بمعدود
يا هل ترى نرى عزا نصول به ... قبل انقضا أجل في الدهر محدود
هناك نحيى بأفراح مواسمنا ... وبافتخار نهني القوم بالعيد

(1) يتكون ديوان "زفرات الضمير" من قسم نثري فيه 14 مقالة وقسم شعري، وهو الذي نورده هنا. والعناوين "القسم الشعري"، "التخاميس الإرشادية"، "قسم التشاطير"... هي من وضع المؤلف نفسه. كما أنه كثيرا ما يورد تقديما للقصائد المناسباتية لإفادة القارئ حول ظروف نظمها.

دمعة على اللغة

عجبا لهم قد ضيعوها جهالة واستبدلوها بموحش الكلمات
فاستنفرت من قولهم ولطالما جادت على الأسلاف بالنفحات
جاء الكتاب بها إلى من اسعدوا ببشائر التذكير والآيات
سئمت من اللفظ الثقيل وحالهم فبكت على الماضي وحال الآتي
درست معالم مجدها وتجردت عن رونق ومحاسن نضرات
عظم السقام بها وطال أنينها وتململت من شدة العثرات
وبدت بأسوإ حالة بين الورى حيث البنون بأربع الغفلات
كانوا بها بين الأنام أعزة ومصاقعا في أرفع الدرجات
فترى الخطيب كأنه أسد الشرى يهدي النفوس لساحة الخيرات
وإذا تقدم داعيا ومحرضا خاضوا غمار الموت بالعزمات
وإذا تكلم في الصلاح رأيتهم يتسابقون لأعظم الغربات
ولكم بها نفروا خفافا نحو ما يعلي النفوس ويصقل الملكات
ولكم بها خدموا الديانة حقبة وتعاضدوا بين الورى بثبات
هذي فوائدها ولست بقادر عن وصف ما فيها من البركات
لغة السعادة مذ أضعناها غدت أحوالنا في أسوإ الحالات
يا أمة لعب الزمان بمجدها حتى غدت في أوحش الفلوات
غفلت على ما فيه رفعة شأنها وتدهورت بمفازة الهلكات
وتبلبلت أقوالها ولسانها قد أثقلته سلاسل الثرات
لغة الكتاب هي الحياة لكل من يبغي الحياة ومن لنا بحياة

نجم هالي
أحلام لو صحت

أودع هـذه الدنيـا وداعـا يمـازجه السرور عـلى الفراق
وأكره أن أعـود إليهـا يومـا لأني قـد سئمت من النفـاق
فهـذي أرض قد ملئت شـرورا وغير شكلهـا عـدم الوفـاق
أمـا للنجـم من ذنب متيـن يصادمها فتعدم بـالمحـاق
لنطرح هـذه الأحمـال عنـا وننجي النفس من ألم الخناق

أرى ملك الكواكـب إذ تجـلى بمنظـره من السبـع الطبـاق
فـأبصر قومنا في سوء حـال تجندلـهم سيـوف الافتـراق
فقلت بمـن أعطـاك سـرا تكل بـه البـدور عن اللحـاق
أرحنـا من حيـاة الـذل يومـا فنحن إلى المنية في اشتيـاق
فلو تبدو بصولتهـا إلينـا نقـابلهـا ببشـر واعتنـاق

أمة الإسلام
في العصر الحاضر

لا تنفد أمة أمست هبا ... هجرت قرءانها واعجبا
أسدل الجهل عليها ليله ... وجفاها من لعلم نسبا
سابقتها في المعالي أمم ... ركبوا للحزم أسمى مركبا
حلت الأرزاء في ساحتها ... وتردت بالهوان حقبا
كلما فكرت في آلامها ... طال حزني ثم دمعي انسكبا
أمة الأوثان بالعلم ارتقت ... وعلا عرش "الميكادو" الشهبا

أي بني الدين الحنيف انتبهوا ... إن دين الله أسمى مأربا
ما لنا قد ضللت أحلامنا ... وافترقنا في الورى أيدي سبا
كثرت بين الملا أقوالنا ... ليت شعري أي خير جلبا
ضلت الأفكار عن نهج الهدى ... وجميل الفعل منا سلبا
أي ذل لم نذق من طعمه ... وصفاء الدهر عنا انقلبا
قد دعينا في الأنام عربا ... وأهيل العرب قوم نجبا
فهم أهل المعالي والوفا ... أي شبه بيننا قد قربا
نحن في أوطاننا لكن إذا ... ما نفيد الوطن نحن الغربا
قد زرعنا الشر في أوطاننا ... واقتطفنا من جناه نوبا
وبلينا بجمود في النهى ... هكذا الله علينا كتبا

خاضت (الأحرار) في إلحادهم ... وهدى الرحمن عنهم حجبا
مرقوا من شرعة الهادي الذي ... جاء بالحق الذي لن يغلبا
كفروا بالله تقليدا وما ... فتئوا يلقون قولا كذبا
أين أهل العلم والقوم الأولى ... قد قضوا نحو الورى ما وجبا

كبـــراء مـــا أرى أم نسوة منزويـــات لجبن فـــي الخبـــا
مـــا لكم في نفسكم لـــم تنظـــروا مـــا لكم إحساسكم قد ذهبـــا
هل ظننتم رفعـــة الأقـــدار فـــي غزر مال في الورى أو منصبـــا
أنـــا إن نـــاديتكـــم لـــم تسمعـــوا هل أنـــادي صخرة أم خشبـــا
إن أردتـــم رفعـــة الأوطـــان في هـــذه الدنيـــا وعيشـــا طيبـــا
فاخدموا الدين الحنيف جهدكـــم وابذلوا في شـــأنه مـــا وهبـــا

شرارة من زناد الفكر

أمـــا لطريق المجد سير ومرجـــع فقد طالما صرنـــا من الذل نكـــرع
ذهلنـــا على مـــا فيه إصلاح حالنـــا وحلت بنـــا في الدهر نكبـــاء زعـــزع
نسبنـــا إلى وصف التعصب في الورى وليس لنـــا في الشـــر للغيـــر منـــزع
ونمنـــا ومـــا حل التكـــاتف بيننـــا ولـــم نفتكر في ســـوء مـــا نتوقـــع
غفلنـــا على مـــا فيه تحسين أمرنـــا وجبنـــا طريق الجهل والـــدار بلـــقـــع
وعظنـــا ومـــا تجدي المواعظ والنـــدا وهذا سواد القـــوم في اللـــهـــو يرتـــع
بكينـــا وهل طفـــي اللـــواعـــج عبـــرة وكل بمـــا يرضـــي هـــواه مولـــع
قسونـــا أمن نوع الحديـــد قلوبنـــا فكل ضعيف الحـــال فينـــا مضيـــع
تقطعت الأسباب فـــي الخير بيننـــا فأين ذوو الإحساس أيـــن التوجـــع
ظلمنـــا كـــأن العدل مـــا في كتابنـــا وأين الذي في الحق دعواه تسمع
جعلنـــا إلى مـــال اليتيم منـــافـــذا إليها ذئـــاب السوء بـــالإذن تســـرع
تركنـــا كتـــاب الله خلف ظهورنـــا وآياته بـــالحق كـــالشمس تسطـــع
سخرنا من الداعي إلى الحق والهـــدى وحلت بنـــا الأرزا وقـــد صم مسمـــع
شغفنـــا بحب الذات والحب قـــاتل وليس لنـــا في الخير نـــاد ومجمـــع
وكم بدع حطت علينـــا رحـــالهـــا وأوذي من بـــالنصح للنـــاس يصـــدع
فقل لي رعـــاك الله إن كنت عـــاقـــلا فكيف بهذا الحـــال للخير نرجـــع

السلف والخلف

فـي مثل ذا الشهر قول الله قد نزلا والشرك عن ساحة الأفكار قد رحلا
في مثل ذا الشهر صام القائمون بما قد أوجب الشرع حيث الدين قد كملا
في مثل ذا الشهر صار الدين مرتفعا والجمع مؤتلفا والنصر قد حصلا
أين النفوس التي بالصوم قد كملت وألبست من ثناء العالمين حلى
أين الأولى فتحوا باب العدالة في كل البلاد وباب الجور قد قفلا
نعم الأولى رفعوا للمجد ما رفعوا وأيّدوا الدين حتى استكملوا الأجلا
صمنا وصاموا ولكن بين ما فعلوا وبين أفعالنا ما يوجب الخجلا
إني أعجبت وأيم الله من رجل قد صام لكنه للعرض قد أكلا
حال اليتامى وبئس الحال حالهم والعاجز المبتلى بالجوع قد قتلا
أهل الثراء فلا إشفاق عندهم كأنهم كذبوا الأديان والرسلا
وهؤلاء كبار القوم قد غفلوا وما رأينا لهم في صالح عملا
داسوا الضعيف بأقدام مضرسة وكل فرد على ما ينبغي اعتزلا
ومن دعا بلسان النصح بينهم قالوا به جنة أو أنه اعتزلا
صرنا من الذل والأكدار في محن وما أردنا على إذلالنا بدلا
أسواق فحش بهذا الشهر نافقة والفكر عن مركز الخيرات قد غفلا
كل امرئ بحديث البطن مشتغل وعن طريق فعال البّر قد غفلا
كيف السبيل إلى تحسين حالتنا وكل فرد بفعل السوء قد شغلا
حسن الرجاء بروح الله ينقذنا من النوائب حتى ندرك الأملا
قوموا اعملوا بالذي قد قال خالقنا كي ما نرى صومنا من فضله قبلا

وداع رمضان

وداعك أيها الشهر المفدى ... عظيم الوقع عند ذوي الصلاح
وداعك حير الألباب منا ... وقد كسفت شموس الانشراح
ففيك الذكر أنزل دون شك ... ليهدي المؤمنين إلى الفلاح
نحاسب نفسنا هل نحن قمنا ... بما يدعو النفوس إلى النجاح
وهل حل التعاون بين قوم ... تمزق شملهم بين النواحي
وهل قمنا بمشروع مفيد ... وأبدلنا التقاطع بالسماح
وهل نحن امتثلنا لما أمرنا ... وحق علينا وصف الامتداح
وهل عطف الغني على فقير ... واسعف بائسا دون اقتراح
وهل ترك السواد اليوم منا ... فعال السوء من فحش المزاح
وهل نفع الرشاد لدى أناس ... يرون الموبقات من المباح
نعم خضنا بحار الإثم جهرا ... وليس على المخالف من جناح
فيا أسفا على ذا الحال فينا ... ويا أسفا لسوء الافتضاح
فهذا الشهر شهر الصوم ولى ... وأشرق بدر عيد في البطاح
ونحن كما علمت فلا اتحاد ... يكون إلى عنَا التأخير ماحي
فكم في العيد من طفل يتيم ... كسيف البال أمسى في جراح
عليه من المذلة ألف حمل ... ثقالا في الغدو وفي الرواح
بني الإسلام هذا الحال فينا ... فمن أين السبيل إلى الصلاح
ولكن عفو مولانا قريب ... ورحمته دليل الافتتاح
فعيد المسلمين صلاح حال ... به الرجعى إلى طرق الفلاح

إلى بني الوطن

أفيقوا يا بني الوطن المُعلّى ... فقد طالت بكم سنة الرقاد
أفيقوا واذكروا تاريخ مجد ... لآباء لهم بيض الأيادي
فقد كانوا ذوي عزم وحزم ... وعلم قد أضاء على البلاد
وهم عمروا وساسوا الملك حق ... سياسة قائد سلس القياد
فدان الناس وامتثلوا وطاعوا ... وفاءوا للتمدن والرشاد
وهم فرعوا العلوم ودونوها ... وهم ملؤا بعلمهم النوادي
وهم أخذوا عن اليونان علما ... تقدم أي شوط عن مبادي
ألم يثبت لنا التاريخ أنا ... بلغنا في العلا أقصى المراد
ألم يثبت لنا التاريخ أنا ... فتحنا الأرض من طود لوادي
ألم يثبت لنا التاريخ أنا ... بنشر العدل مصقعنا ينادي
لنا الملك العرمرم دون فخر ... لنا جيش يكر على الأعادي
لنا علم مدارسه أزاحت ... رسوم الجهل عن حضر وبادي
لنا دين حوى تنظيم عيش ... فوزا بالمثوبة في المعاد
فما لي لا أرى إلا بقايا ... كساها الحزن أثواب الحداد
وما لي لا أرى إلا حيارى ... أضاعوا الرشد في طرق الفساد
تغيرت البلاد ومن عليها ... ودون رجوعنا خرط القتاد
تلبد في آفاق الفكر جهلٌ ... فأوجب كل شر في العباد
فمن هَمٍّ محيط كاد يفضي ... على عقد فضائعه بوادي
ومن فقرٍ ألمّ وعمّ حتى ... لقد لاح الضرار على السواد
لأنا قد عدمنا علم قوم ... بها الإثراء يغدو في ازدياد
(فلاحتنا) و(صنعتنا) و(تجر) ... رماها الدهر في سوق الكساد
وثابرنا على أصل قديم ... ولم نحفل بأحوال جداد
وقالوا هكذا الآباء كانوا ... وتقليد القديم أجَلُّ هادي

غلطتم ليس في الإنسان عقل ... له الرقيا إلى أعلى امتداد
أميّزَنَا الإله به لأمر ... من العبث البعيد عن المفاد
فَبَدْءُ النوع كان بسيط عيش ... ولم يزل الرقي بلا نفاد
وضيعنا أصول الدين قطعا ... ولاء الفضل للخيرات حادي
وحافظنا على شطح ودف ... ومزمار وتشبيب الغوادي
وبِنْتُ الحَانِ قد سلبت عقولا ... وأفنى ميسر ما في الأيادي
تشدقنا بقشر من علوم ... معارضة ومنع واستناد
ضللنا الرشد في ظلمات جهل ... وصار طريقنا نهج العناد
لهونا عن العلوم بنقر طار ... ورقص المومسات (بحلق وادي)
وجررنا ذيول الفخر تيها ... وذاك الجر خفض للعباد
سواكم فاز بالقدح المعلى ... وأنتم ما لكم حُلَفَا الرقاد
فجمع قد تكاتف باتحاد ... كجسم شد بعضه باعتضاد
وقوات ترج الأرض رجا ... وآلات متينات شداد
(فأسطول) بخاره قاد قسرا ... عُتُوًّ البحر من بعد العناد
به ملكوا الشواسع حين جالوا ... به تعدو على العاصي العوادي
كذا (الأرتال) في سكك اصطناع ... تقرب ما تمنع بابتعاد
فلا بر ولا بحر بناء ... نسافر في وثيرات المهاد
و(أسلاك) بها ارتبطت نواصي ... فَخاطِبْ بالكتابة أو فنادي
ومن تكن العلوم له دليلا ... يَرِدْ ورد المنى رشف الصوادي
(مدارسهم) أوانس من علوم ... ترقي النوع والمقصود بادي
(صحائفهم) صفائح للأعادي ... وعائد وصلة لذوي الوداد
(مجالسهم) تدور على صلاح ... عمومي مقررة المبادي
ونحن على النقيض أليس نحسا ... بطالعنا وميلا عن رشاد

ولكني بما يبدو بطيئا ... سأنشد شعر قوال السداد
(أرى تحت الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يصير إلى اتقاد)
تحرك ميت الإحساس فينا ... وهَمَّ بأن يفيق من الرقاد
فهذا العلم أصبح في انتشار ... وهذا الجمع أصبح في اعتضاد
وشأن الشيء تدريج إلى أن ... يحل بنقطة قصوى المفاد
و(خلدونية) العرفان ضمت ... أناس منهم كل هادي
أناس خدمة الوطن المفدى ... قصارى مبتغاهم بازدياد
غذوا أبناءنا درُّ الترقي ... وذاك الدرُّ من منن الجواد
فأصبح كل تلميذ كفيئا ... لإسداء المنافع للعباد
إذا أخذ (الخريطة) قال هذي ... بلادي أو سواها من البلاد
إذا رقم الغبار أثار نقعا ... تكشف تحته صبح الرشاد
إذا أملاك في (التاريخ) قولا ... يروي بالإفادة كل صادي
فسدد من تولاهم بنصح ... إله إذ هم أقوى العماد
على أن الأماني فوق هذا ... ولكن كل بدء في تمادي
وخير الصنع صنع قد توالى ... وعوفي من توان أو نفاد

يا أهل تونس

يا أهل تونس قَوْمي ما لكم غُرَبَا ... عن موطن العلم وتعليمكم أدبا
يا أهل تونس قومي استيقظوا فلكم ... مجد على هامة العلياء قد نصبا
يا أهل تونس قومي استدركوا رمقا ... من عزكم قد أراه اليوم منقلبا
هيا ادفعوا عنكم دهماء مظلمة ... سحائب أرعدت ما أرسلت صببا
هيا اقلعوا عن معاص طالما فشيت ... تسود الصحف والأوراق والكتبا
هيا انصتوا لي فإني ابن موطنكم ... لا أشتكي أبدا في نصحكم تعبا
هيا املأوا من علوم العصر حافظة ... فبالعلوم ينال المرء ما طلبا

أسلافكم قد قضوا في عزهم ولهم ذكر له في بطون الكتب حسن نبا
إني أراكم حيارى لا دليل لكم ألا ارفعوا عن محيا مجدكم حجبا
إني افتكرت لداع في تأخركم فلم أجد غير نبذ العلم لي سببا
قد ساد غيركم بالعلم واجتهدوا وحصلوا من فنون العصر ما نضبا
يا قومي انتبهوا من نوم غفلتكم وحصّلوا ما يزيل عنكم الكربا
باب العلوم غدا في القطر مفتتحا راح المعارف تحيي كل من شربا
جمعية "الخلد" تحبو من معارفها "ونية" الصدق فيها أنتجت نجبا
جمعية العلم حلت بين أظهركم بودها أن تراكم خير من حدبا
أموا مواردها إني النصوح لكم والنصح في ديننا من خير ما وهبا
الله يعلم أني كلما ذكرت نفسي تأخركم دمعي له انسكبا
أبناء قطري بودي أن أرى لكم شهامة قد تحاكي السبعة الشهبا
إني امرئ قد تفانى في محبتكم فقابلوا صدق نصحي بالذي وجبا

معاول الخلف في صروح الأجداد

ردد لحاظك أيها الوطني الذي حلت به الأكدار والآلام
وانظر إلى تلك الربوع وقد عفت من بعد ما ابتهجت بها الأيام
كان بها الأسلاف والقوم الأولى نشرت بهم ببلادنا أعلام
كانوا بروح الدين أعظم أمة قد زلزلت من بأسها الأقدام
فلكم أفادوا العالمين وعمروا وبحزمهم نحو العلا قد حاموا
لبوا النبي محمدا لما دعا ببشائر القرآن وهو إمام
لبسوا من الإيمان أشرف حلة تعلي النفوس وبالفرائض قاموا
خاضوا الفدافد عن جياد ضمر وبحب رفعة دينهم قد هاموا
ثم انقضت أعصارهم وفعالهم لم تنقضي ما دامت الأيام
هذي مناقبهم وهذا حالنا من جهلنا سخرت بنا الأقوام

ركضت بنا خيل الجهالة والعنا ... ما إن لها عن ركضها إحجام

والفكر في بحر النقائص تائه ... واسترسلت في سيرها الآثام

سوق من البدع القبيحة رائج ... والقوم عن إصلاحهم قد ناموا

عجبت أهيل الدين كيف سعى لنا ... هذا الفساد ودينا الإسلام

يا أمة الإسلام كم هذا العنا ... أفما لنا عن زجرنا أحلام

يا أمة الإسلام هذا ديننا ... وكتابنا أفما لنا أفهام

يا أمة الإسلام هل من عالم ... ذي غيرة من شأنه الإقدام

يسعى ويرفع مجدنا بين الورى ... وبنفعه يستبشر الإسلام

فالعلم فيه صلاحنا وحياتنا ... والجهل موت للعباد زؤام

قوموا لرفعة دينكم وتعاونوا ... وعليكم بين الأنام سلام

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

خطاب الضمير في وقت المصيف

رقصوا لمقدمه البهي ومالوا وتفسحوا بين الرياض وجالوا
ولهم على حسن الشطوط رحال هل يزعمون بأن زهت آمال
وعلى الظهور من الهموم جبال

قالوا زهت أوقاتنا بمصيف وتلطفت أخلاقنا بلطيف
وتنوعوا في لبس كل خفيف ولدى التهتك أنفقت أموال
وعلى الظهور من الهموم جبال

ركبوا على الأرتال والعجلات وتنافسوا في الخيل والعربات
وتراقصوا في مرسح الشهوات وكبيرهم في كبره يختال
وعلى الظهور من الهموم جبال

لو أنصفوا لبسوا الحداد على الذي قد حل من فحش ومن قول بذي
أفعالنا قد طال منها تعوذي ذهب الشعور وساءت الأحوال
وعلى الظهور من الهموم جبال

أموالنا في (بلفدير) صرفها وعلى المراقص والمراسح وقفها
هذي خلاعتنا وهذا وصفها ولكم أضيعت في البلاد عيال
وعلى الظهور من الهموم جبال

إني طربت لموت حلق الوادي حيث الفسوق ومرتع الأوغاد
فخلاءه برد على الأكباد ربع به للوافدين ضلال
وعلى الظهور من الهموم جبال

ما كاد قلبي أن يخامره الطرب إلا وحلت فيه سالبة الذهب
فاذهب إلى (الكازينو) تلف به العجب رقص به ذهب النهى والمال
وعلى الظهور من الهموم جبال

ذي غادة (الإسبان) تزهو بوصفها جاءت تسلي المسلمين برقصها
عما (بأندلس) بدا من جنسها هتكوا الحريم وذبّحت أطفال
وعلى الظهور من الهموم جبال

يا زائر (الكازينو) كن متذكرا تاريخ (أندلس) وفي ما قد جرى
جاءت كموعظة لنا بين الورى ولرب رقص للعقول مثال
وعلى الظهور من الهموم جبال

يا ابنة (الاسباني) إنك عبرة لو أن في أبناء تونس غيرة
جددت للتاريخ أشنع سيرة لم تأت قط بمثلها الأجيال
وعلى الظهور من الهموم جبال

عقدوا الجموع الى الفساد وشمروا وعلى المصالح والفلاح تأخروا
وتيقنوا التأخير عم فزمروا والكل عن نفع الورى مكسال
وعلى الظهور من الهموم جبال

قسم التمدن هذه أحواله يبغي الصلاح وهاته أعماله
لم أدر هذا القسم أين مآله طال العنا وقد انقضت أجيال
وعلى الظهور من الهموم جبال

عشاق أحجار القبور تكاثروا وكذا الدجاجلة اللئام تقاطروا
وعلى استلاب الجاهلين تآمروا والكل عن خدع الورى يحتال
وعلى الظهور من الهموم جبال

أهل الجمود على الخلائق قد جنوا وعلى التقدم في شريعتنا قضوا
هدموا إلى الأسلاف طرا ما بنوا وبفعلهم حلت بنا الأهوال
وعلى الظهور من الهموم جبال

يا من بدين محمد قد آمنوا قوموا لرفعة جنسكم وتعاونوا
وبشرعنا الأسمى فلا تتهاونوا وردوا عيون العلم فهي زلال
وعلى الظهور من الهموم جبال

يا أمة القرآن

كيف السبيل إلى انطلاق لساني ويراعتي عجزت عن التبيان
نحن انحرفنا على هدى الإيمان وتسابق الأقوام للميدان
هيا انهضي يا أمة القرآن

هذا كتاب سعادة الدارين يجلو القلوب من الصدى والرين
يهدي الطغاة بحكمة وبلين فيه الشفاء على مدى الأزمان
هيا انهضي يا أمة القرآن

هذا كتاب أتى يؤلف بيننا فلم التقاطع والتدابر والعنا
إن دام هذا الحال حل بنا الفنى أفما لنا رجعى إلى الإحسان
هيا انهضي يا أمة القرآن

يا أيها الأحرار هيا فانظروا ما قد حوى قرآننا وتدبروا
قد جاء في آياته أن تنصروا قوموا اعملوا بأوامر الديان
هيا انهضي يا أمة القرآن

يا نشـأة الأحرار يـا إخواننـا هذي شريعتنـا وهـذا كتابنـا
هيا اهتـدوا لننل بكـم آمالنـا بتعـاضـد وأخـوة الإيمـان
هيـا انهضي يـا أمـة القرآن

طال الزمان على تفرق شملنـا ولقد تسود فـي البريـة فعلنـا
ما بـالنـا صاح تضـاءل فضلنـا ومكثنـا بين عوامـل النقصـان
هيا انهضي يـا أمـة القـرآن

أين الأخـوة والتعاضـد والوفـا أين المروءة والفضائل والصفا
ما بالنا مصباح مجدنـا قد طفـا ولقد سبحنا بأبحـر الطغيـان
هيـا انهضـي يـا أمة القـرآن

أسلافنا فتحـوا البـلاد وعمـروا والى التكاتف والتعاون شمروا
هذي تواريخ الحقائق فانظروا كم شيـدوا بعواصم البـلدان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

أسلافنا كسبوا المفاخر في الورى وغدوا بحزمهم كآساد الشرى
أهل الفصاحة والشجاعة والقرى نـالوا الكمـال بقوة الإيمـان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

هجمت علينا فيالـق الأضـرار من عظم فعـل السـوء والأوزار
مستعبديـن بسائـر الأقطـار متسربلين بذلـة وهـوان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

أسفي على أهل العلا ومن اقـتفى أسفي على الأسلاف أر باب الوفا
أسفي على جمع أراه عـلى شفـا أسفي على مجد رفيع الشـان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

آه وما يجدي التـــأوه والبكـــا والقوم في بدع وجهل أهلكـــا
رحماك خالقنا إليك المشتكـى من فعل أهل الجور والعـدوان
هيـا انهضـي يـا أمـة القـرآن

أبناء جنسي مـا لكـم لا تنظـروا فيمـا به عند المهيمن تـوجـروا
حكم الكتـاب كثيـرة لو تبصـروا مـا قد حوى لسعادة الإنسـان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

يا أيها العلمـاء يـا أهـل الهـدى قوموا ادفعوا عنّا الجهالة والردى
أنتم مصابيح النهى طول المـدى وبكم تشـاد مدارس العرفـان
هيـا انهضي يـا أمـة القـرآن

يا من سمـوا بشريعـة المختـار وبهم تنـار حنـادس الأفكـار
كم تلتهـون بأصفـر الدينـار والمسلمون بـأربع الخسـران
هيـا انهضي يـا أمة القـرآن

قوموا بنصحكم لرفعـة شأننـا فلقد فشى وصف الجهالة بيننـا
هيا ارشدونا إلى معـارف عصرنا برشـاد حكمة خـاتم الأديـان
هيا انهضـي يـا أمـة القـرآن

يا أمة العرب

إلى متى أمـــة الإســـلام فـــي كرب وقد أحاط بكم جيش من النـوب
والفكـر أضحـى من التـأخير في تعب والغير في جدّ أمّـا نحن فـي لعـب
مـا آن أن تنهضـي يـــا أمة العرب

يـــا أمة لعظيم النصح ما سمعت أسلافها استيقظوا لكنها رقدت
وفي نوادي الهوى والفحش قد رتعت وما أفاد لسان الوعـظ والخطـب
مـا آن أن تنـهضـي يـــا أمة العـرب

يـا أمـة عامـل الأغراض فرقهـــا والعين قد شاهدت حزنـا فارقهـا
ناديت والنفس حسن الصبر فارقهـا إن دام هذا العنا يـا موت فاقتـرب
مـا آن أن تنهضـي يـا أمة العرب

هذي المفاسد قد راجت بضائعهـا كذا الفواحش قد عمت وقائعهـا
والخمر أثرى بين النـاس بائعهـا والفكر عن كل نفع صار في حجب
مـا آن أن تنهضـي يـا أمة العرب

بضائع الفسق في ذا الصيف نافقـة والمومسات (بحلق الوادي) راقصة
والنفس بالرقص بل بالنقص والعـة وهذا عَدُوُّهُ جهـلاً منتهى الطـرب
مـا آن أن تنهضـي يـا أمـة العرب

أيـن الديـار التـي بـالعـز آهلـة أين الربوع التي بالفضـل عـامرة
أين العيون التي بـالحزم ســاهرة هذي مآثرهـا من أعجـب العجـب
مـا آن أن تنهضـي يـا أمة العـــرب

أين المعـالي التـي كانـت لأمتنـــا أين التعـــاضد من يدعو لرفعتنـا
أسلافنـا شيـــدوا فخـرا لملتنـــا والضد من بأسهم في غـاية الرهب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

أسلافنا فعلوا الخيرات واتحدوا وجل أعدائهم بالحق قد شهدوا
قوم بأفعالهم في الكون قد سعدوا هم شيدوا وهدمنا كل منتصب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

أسلافنا رفعوا للدين ما رفعوا لله درهم بالعلم كم نفعوا
قوم بحزم وعزم للعلى اندفعوا وهذا ذكرهم في الصحف والكتب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

هذي العلوم لدى الأقوام منتشره وما لنا فكرة في النفع مفتكره
والجهل بالحال قد أبدى لنا ضرره والمرء بالفكر لا بالمال والنسب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

فالجهل داء ومنه ينتج العدم والعلم تحيا به بين الورى الأمم
سلوا (الجابون) بماذا قومه انتقموا يجيب بالعلم لا باللهو واللعب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

يا رب هيئ لنا من أمرنا رشدا وانصر شريعتنا واختم لنا سعدا
واجعل لأمتنا في سعيها مددا لأنّ رفعة جنسي منتهى أربي

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

موسم العيد

عـرف المواسم في الأكـــوان نفـــاح ينفي الهموم ومـا فـي القلب أتـراح
والبشر عـم الـورى والوقت وضـاح أبنـاء جنسي لهـم بالعيد أفـراح
فـأين عيد لـه للـدين إصـــلاح

فكم رأينـا من الإســـراف والتـــرف ومن قصـور ومن دور ومن غـرف
إنا انحرفنا على ما كان فـي السـلف ونالنـا من صروف الـدهر أقـداح
فـأين عيد لـه للـدين إصـلاح

أبنـاء جنسي متـــى للدين تنتهجـــوا تجلى مصـــائبكم طرا وتبتهجـــوا
هيا اتبعوا سلفا فيما لـــه نسجـــوا كيمـــا لكـــم في الكـون أمـداح
فـأين عيد لـه للـديـن إصـلاح

أهل المفاسد فيمـا عولـــوا نجحـــوا بضاعة الفسق فيها بيننـا ربحـــوا
قالوا التمدن هذا مـا بـه اصطلحـــوا أهل العلوم غدوا في الكون أشبـاح
فـأين عيد لـه للـديـن إصـلاح

سفائن الدين أهـل العلـم سائقهـــا ومن رشـادهـم تأمَـنْ طرائقهـــا
يـا أيها العلمـا أنتـــم سوابقهـــا لكن فشلتـم ومـا للسفن أريـاح
فـأين عيد لـه للـدين إصـــلاح

نقضي مواسمنا جمعـــا لشوقتنـــا في بيت مومسـة أو ميسر اقترنـــا
إن التمـــدن في الأقـــوال حجتنـــا يعلـو مواسمنـــا سكر وأتـراح
فـأيـن عيد لـه للـدين إصـلاح

يـا رب هيـئ لنـا من أمرنـــا رشـــدا وانصر شريعتنا واختم لنا سعـدا
بفضل (شهر الصيام) اجعل لنا مـددا كي ما نرى القوم بالإرشاد قد صاحوا
فـأين عيد لـه للـديـن إصـــلاح

(وقلت مشطرا عينية ابن سينا التي نظمها في وصف الروح)

هبطت إليك من المحل الأرفع ... وبدت بإشراق البدور اللمع
وغدا لها قفص الجوارح مسكنا ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن مقلة كل عارف ... متبصر بحقائق المتشرع
وخفت فلم تدر الخلائق كنهها ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... تأتي المكاره من طريق أنفع
عجب لها بعد الإباءة ما لها ... كرهت فراقك فهي ذات توجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ... رضيت من الدنيا بنوع تمتع
طال التأنف ثم بعد حلولها ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... حيث النفوس بوسط ذاك المجمع
ذهلت على تلك السعادة والهنا ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... وبصاد صولتها بذاك الموقع
وتمكنت من بعد طول إبائها ... من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... تبغي الجميل لزاد ذاك الموضع
وتطلعت تعشو إلى نور بدا ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي إذا ذكرت عهودا بالحمى ... ومحاسن كانت بذاك المرتع
جعلت تخمد شوقها وزفيرها ... بمدامع تهمي ولم تنقطع
وتضل ساجعة على الدمن التي ... كانت بها من قبل ذات تفزع
نظرت لها نظر التبصر عندما ... درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... عن اوجها والشوق بين الأضلع

تبغي العروج إلى النعيم فردها ... قفص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... والجسم بين تحلل وتصدع
وسطا على الأجل المحتم حتفه ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف ... والخير أحسن ما يكون لمن يعي
تركت ثياب الذل دون تأسف ... عنها حليف الترب غير مشبع
هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... عجبا يرد الطرف دون تطلع
نظرت هناك من المحاسن والعلى ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... وتردد التغريد دون توجع
علمت بحسن مصيرها فترفعت ... والعلم يرفع شأن من لم يرفع
فلأي شيء أهبطت من شامخ ... فيه الكمال لأهل ذاك الموضع
ولأي سر زحزحت عن مركز ... عال إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... أزلية لم تمتزج بتضيع
وحبى لها في الكون غزر فوائد ... طويت عن الفذ اللبيب الأورع
فهبوطها لا شك ضربة لازب ... لتصير بالعرفان ذات تولع
وعلى التمكن في الجوارح أكرهت ... لتكون سامعة لما لم يسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... وجميع ما تبغيه نفس الألمعي
نظرت بعين الصدق كل نفيسة ... في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... والدهر يقطع كل من لم يقطع
وتغيرت أيام بان شروقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ... فأضاء منه الكون أي تشعشع
وغدا يردد بيننا لمعانه ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

(وقلت مشطرا بيتي عنترة العبسي)

ولقد ذكرتك والرمـاح نواهـل ... والجـو أغبـر مثـل ليـل مظلم
والكر مع صدق العزيمة ثـابت ... مني وبيض الهنـد تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنهـا ... فعلت كلحظك فـي فـؤاد مغـرم
جردتها يوم الوغى فوجدتهـا ... لمعت كبـارق ثغـرك المتبسـم

(وشطرت هذبن البيتين)

هُزوا القدود فاخجلوا سمر القنى ... والبدر عن ظهورهـم عـدم السنـا
وتجهـزوا صـاح لميدان الهوى ... وتقلدوا عوض السيوف الأعينـا
وتقدمـوا للعـاشقـن فكـلهم ... وجلوا وما قبلوا مصـادمة الفنـا
وتفرقـوا زمـرا وكـل منهـم ... طلب النجـاة لنفسه إلا أنـا

(وشطرت هذا البيت)

وإذا أتتـك مذمتـي من نـاقص ... هيهات إنـي للغبـي منـازل
وإذا عزا لي الحاسدون نقيصة ... فهي الشهادة لي بأني الكامل

(وشطرت هاته الأبيات)

إلى محيـاك نور البـدر يعتـذر ... والكون من حسنك الوضاح يفتخر
كل المحاسن فيك اليـوم قد جمعت ... وفي محبتـك العشـاق قد عذروا
وجنة الحسن في خديـك طالعـة ... والشهد بين ثنايـا الثغـر ينهمـر
كيف البقاء مع الإعراض يـا أملي ... ونار هجـرك لا تبقـي ولا تـذر
يـا من يهـز دلال الحسن قامتـه ... هذا القضيـب إذا ما أقبـل السحر
هلا تركت غصون البـان في خجل ... الغصن هذا فأين الظـل والثمـر
خاطرت فيك بغالي النفس ابذلهـا ... وصرت بين الورى للمـوت انتظر

وقد مكثت إلى الأخطـار مقتحما ... إن النفيس عليـه يسهـل الخـطر
لمـا رأيت سـواد الشعر منك بـدا ... والصبح تحت ظلام الليل يستتر
والقلب صـار بنـار الحب محترقا ... خضت الظلام ولكن غرني القمر

(وقلت مشطرا)

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونـه ... وصار أليـف الشـر حلف تظلـم
وحلت به الأسواء من كـل جـانب ... وصـدق مـا يعتـاده من توهـم
وعـادى محبيـه بقـول سعاتـه ... وخاض بحار الإثم دون تفهـم
وعاش بذي الدنيا بغير محـالف ... وأصبح في ليل من الشك مظلـم

(وشطرت أيضا)

رأيت الهلال ووجـه الحبيب ... بإشـراق نـور البـهى قد ظهـر
ورددت طرفي لهـذا وهـذا ... فكـان هلاليـن عنـد النظـر
فلم أدر مـن حيرتـي فيهـما ... طريقا بـه اهتـدي للفكـر
ومن ولهي لم أكن عـارفـا ... هلال السما من هـلال البشـر
ولولا التورد فـي الوجنتـ ... ـين وما قد بدا من عجيب الحـور
وثغر له قد حلـى جوهـري ... ومـا راعنـي من سـواد الشـعر
لكنت أظن الهـلال الحبيـ ... ـب وقبل التحقـق يعمى البصـر
وصرت من الشك لا أهتـدي ... وكنت أظـن الحبيـب القمـر

(وقلت مشطرا)

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وأودعها قفـلا من السـر محكم
وأجهد في كتمانها جـل وسعـه ... وإن خالهـا تخفى عن الناس تعلم

(وشطرت أيضا)

إياك من زلل اللسان فإنما ... قرن الهلاك بنطقه الموجوع

قد قالت الحكماء قولا صادقا ... عقل الفتى من لفظه المسموع

والمرء يختبر الإناء بنقره ... شأن الذكي وشيمة المطبوع

علما وتجربة وفائق حكمة ... ليرى الصحيح بها من المصدوع

(وشطرت السؤال التالي)

ورد الخدود إذا تكامل لونه ... وازداد من خجل عجيب تلون

وزهى على صحن اللجين بحسنه ... تحت العيون الناعسات الفتن

هل للشجي الولهان يوما قطفه ... بتلطف شأن المحب المعتني

ويباح في شرع المحبة فعله ... أو يمنعن ما الحكم في ذا افتني

(وشطرت الجواب عليه)

إن كان دعوى ذا المتيم صادقا ... وغدا من الهيمان حلف تحزن

وتعاظم الوجد الجسيم بقلبه ... وبدا لنا إتلافه بالأعين

فيجوز قطف الورد إن علم الشفا ... في جسم ذاك العاشق المتمكن

ويباح أيضا للشفا استنشاقه ... حرصا على إحياء شخص مؤمن

(وقلت أرثي فقيد العلم والتقى الشيخ يوسف القزاح المساكني)

نعى النـاعي لنا شيخـا جليلا ... تقيا عالمـا ورعـا نبيـلا
فأثـر نعيـه فينـا وأجـرى ... لنا دمعا فزاد بنـا عويـلا
وشق جيوب أفئـدة حـراص ... علـى إبقـاء نفـع أن يـزولا
وأضرم نـار حـزن واكتئـاب ... وأبقى فقـده ربعـا محيـلا
ألا لبـى دعـايـة خيـر داع ... إلى الفردوس يبتكـر المقيـلا
أخـو ورع وتقـوى وانـزواء ... عن الدنيا وما سـاوت فتيـلا
محمد من دعـي القـزاح أكـرم ... بـه حبـرا لإرشـاد منيـلا
قضى عمرا نفيسـا في دروس ... بعلم الدين قد عمرت طويـلا
وفـي ذكـر وفـي زهـد وبـر ... وأخلاق عدمنـا لها مثيـلا
وفي بحر السلـوك لـه مغـاص ... وأذواق تضـيء لـه السبيـلا
عفا رسم التقا بعـد المفـدى ... وصـار الرشد ربعا مستحيلا
وذي شيم الزمان فـلا عجيـب ... يزعزع أهلـه جيـلا فجيـلا
أيا ركن الصـلاح ومن تـردى ... ردا السلف الذي حاز الجميلا
ويا من قد نهى شهـوات نفس ... على طرق الهـوى نهيا كفيـلا
رحلت عن الدنيا وخلّفت ذكـرا ... جميلا لم يـزل فينـا نزيـلا
ستدخل جنة لا مـوت فيـها ... وكل الخير منهـا لـن يـزولا
مساكن مـا مسـاكنكم عمـار ... وقد فقدت أخا العلم النبيـلا
وأنتم يـا بنـي القزاح صبـرا ... فمـا عيش الفتـى إلا قليـلا
فكـل قد فقدنـا خير هـاد ... على نهـج الشريعـة لـن يحولا
عليه رضـا الإلـه سحـاب وكف ... تواصل رمسـه أبـدا همـولا

(وقلت في رثاء فقيد الوطنية مصطفى كامل باشا)

ألا قـل للسحـائب ليس تهمي ... ونهر النيل لا يبدي مسيـرا
لأن الأرض لا تحتـاج غيثـا ... فقد سقي الثرى دمعا غزيـرا
وبث إلى الـورى زفـرات حـزن ... فقد فقد العلى رجلا خطيـرا
ورجت رجـة فـي كـل قـلـب ... وعاد الطرف من أسف حسيرا
وضاق بنا الفضـاء الرحب حتى ... حسبنا النفخ جاء لنا نذيـرا
أكفكف أدمعي والعيـن تـأبى ... وقبل اليوم كنت فتى صبـورا
وكيف اليوم أطفـئ نار حزنـي ... وقد طمس الردى قمرا منيـرا
وقد كسف الصلاح (لمصطفـاه) ... غيورا ما رأينـا لـه نظيـرا
فتى أفنى الشبـاب الغض منـه ... لإصلاح وكـان بـه خبيـرا
وأسهر جفنـه والنـاس نـامت ... على فـرش نمارقهـا حريـرا
وكـم هـز اليـراع لنفـع وطن ... من الإيمان كـان لـه نصيـرا
وكم خطب له أحيت نفـوسـا ... وأذكت من حماستها سعـيرا
وقد كان (اللـواء) لـواء نصر ... بصدق العزم كـان له مديـرا
لقد نـالت بـه الأوطـان عـزا ... وجفن الدهر كان به قريـرا
فمـن ليراعـة عرفـت بصـدق ... إذا هزت سمعت لهـا صريـرا
فقل للنيل يجري دمـا عبيطـا ... فقد ذهب الظهيـر فلا ظهيـرا
وقـل (لكرومر) والدهـر حـرب ... وليث الموت يغتـال الأميـرا
فلا تشمت لموت فتـى عظيـم ... أنال الشعب فكـرا مستنيـرا
يريـد لوطنـه أبـدا رقيـا ... ولم يـك مـثل زعمكم مثيـرا
بنو الإسلام قد أمسوا حيـارى ... وصرف الدهر شره مستطيـرا
إذا ما قـام بـالإصلاح فـرد ... وأنتج غرسـه روضـا نضيـرا
سطا عنه الحمـام كليث غـاب ... شديد البأس قد أبدى زئيـرا

تأملّ في رجـال العـزم وانظـر ... تجد لجميعهم أجلا قصيرا
فيا أهل الصلاح عـزاء فـرد ... تكاد به البسيطـة أن تمـورا
لقد ذهب الزعيـم إلى نعيـم ... وحور يبتهجـن بـه سـرورا
فما للمشفقين سوى اصطبـار ... ليجبـر منهم القلب الكسيـرا

(وقلت أرثي فقيد الشرع شيخ الإسلام محمود بن الخوجة)

للمـوت سهم مصيب غيـر مردود ... وليس يخطي نفوس البيض والسود
فكم أصـاب ملوكـا في معـاقلهـم ... شم الأنـوف لهـم ذكـر بتخليد
وكم رمى كـل ذي علـم وذي شـرف ... ومن تولـع بـالإحسـان والجـود
وكم صروح هوت من هـول موقعـه ... سارت أحاديثها في المصر والبيد
قد جرعتنا الليـالـي من مصائبهـا ... أقداح هم لهـا حسـو بتهديـد
وأفجعتنـا نعـوش عندمـا حملـت ... إلى المقابر فـي نـوح وتعديـد
وأنفس القوم حـارت عندمـا سمعت ... صوت المنية هـذا نعـش (محمـود)
حبر العلوم وشيخ المسلميـن ومـن ... صارت مآثره كالعقـد في الجيـد
أودى الإمـام الذي قد طالمـا انتفعت ... منه الخلائـق في حـل لتعقيـد
يا راحلا ولـه في القلـب منزلـة ... تبقي لك الذكر من حمـد وتمجيـد
كم قد رفعت بـدار الشـرع ألـوية ... من العلـوم لنصـر أو لتـأييد
من للمسائـل إذ مـا غـم مشكلهـا ... عن كل حبر لحسن الرأي مقصـود
لقد لحدنا المعـالي يـوم مصرعكم ... في رمسك المستضي يا خير ملحود
أسفي على العالم الخوجي بحر هـدى ... رب البلاغـة في نسـق وتنضيـد
يا آل بيت لـه فـي العلـم مأثـرة ... صبرا فليس الـردى يومـا بمردود
واستمطروا لفقيـد الشـرع مرحـمة ... تترى على رمسه من غيـر تحديـد
ذاك العليم الذي نرجـو النعيـم لـه ... وهذا غـايـة ما يمليـه مجهـودي

(وقلت أرثي كافل اليتامى المحسن الكبير أحمد المنشاوي باشا المصري)

مآل المرء في الدنيا الفناء ... ولكن الجميل له بقاء
وأشرف من على الغبراء طرا ... فتى يمضي ويبقى له ثناء
إذا كان الفناء عليها حتما ... وفي الأخرى عقاب أو جزاء
فما ينجي الفتى في يوم حر ... وينفعه إذا انكشف الغطاء
خذ الإيمان مع تقواك زادا ... وحب الوطن فيه لك العلاء
ومد إلى التعاون كف بر ... على ما فيه نفع واهتداء
فكسب البر ليس له نفاد ... وكسب المال صاح له انتهاء
وفي عيش الكرام مزيد خير ... وحسن رفاهة فيها الهناء
ولا شيء يعز الصبر فيه ... سوى فقد الكرام الأسخياء
كفقد الفاضل (المنشاوي) لما ... نعاه الناعي قد عز العزاء
فتى قد حاز محمدة وذكرى ... وعاون أمة فيها الرجاء
له أيد تريك البذل دوما ... فكم في القحط زال بها عناء
(فمصر) أسدلت جلباب حزن ... وسالت فوق وجنتها دماء
لمثل فقيدها فلتبك حقا ... فموت الأسخياء هو البلاء
أيا رب السخا وفقيد مصر ... يحق عليك للجفن البكاء
فكم أنعمت في مشروع علم ... لوجه الله ليس له رياء
وكم لك من عطايا لليتامى ... ومن جدواك للمرضى الشفاء
إذا ما بان نقص النيل حينا ... بسطت الكف فانقشع العناء
سقى الرحمان رمسا أنت فيه ... غدا في الأرض تغبطه السماء
وجوزيتم عن الإسلام خيرا ... وقوبلتم بما فيه الرضاء
أعزي الآل والإبن المفدى ... أما لك يا بني به اقتداء
فوالدكم أقام بناء خير ... ونرجو أن يشاد بك البناء

(وقلت مهنئا أميرنا المحبوب محمد الناصر باي بجلوسه على عرش الإمارة عام 1324 وسردتها بين يديه يوم البيعة العامة)

أنـــوار بيعتكـم لاحت تحيينـــا ... فـأحيت النـاس والآمـال والدينـا

والخلق قد رددوا من عمق أفئـدة ... أن ببيعتكـــم نلنـــا أمـــانينـــا

قلوبنـا يـا ضيـاء الملك أجمعهـا ... قد أصبحت نحو ذاك العرش تدنينـا

لقد ملكتم قلوب النـــاس قـاطبـة ... وذكركم في الـورى فـاق الريـاحينـا

قطعـا نـرى بكم فـي عصر ملككم ... والحزم والعزم في عليـاك قد صينـا

وإن ضللنـا فنـور منـك يرشدنـا ... الـى الهدى حيث كنت اليـوم مهدينا

يـا أيهـا الملك الميمـون طـالعـه ... لا زال عدلكـم يحمـي نـوادينـا

لقد جلست على عرش أضاء بكـم ... وأصبـح الملك بـالتأييـد مأمونـا

رقاك ربك فـي عصـر التمدن كـي ... تسعـى بجهدكـــم فيمـــا يرقينـا

فقد أتى في حديث الهـادي "كلكم ... راعٍ" وأنت الـذي قـد صرت راعينـــا

فانظر إلينـا بعين العـدل يـا أملـي ... لا زلت ركنـا سمى في حصـن بارينـا

وخلـص القطر من قـوم دجاجلـة ... قد أحدثوا المكر مذ صـاروا شياطينا

وارفع علينـا بحـزم منكم بدعـــا ... عن مركز الخيـر والإسعـاد تقصينـا

وشد منـــار علـوم الديـن ملتفتـا ... إلـى حماهـا وزدهـــا فيـه تمكينـا

وعممن نشرهـا فينـا فنـاشرهـا ... ينـــال رضـــوان مولاه وعليينـــا

وارفع غواشـي جهل عن بصائرنـا ... بكـل علم به الإنســان قـد زينـا

أعني علوما ترقـي فكر صاحبهـا ... ويحـرز السبـــق إن أم الميـادينـا

لهـا المدارس شـاد العـالمون بهـا ... حتـى جنـوا ثمرا منهـا أفانينـــا

منها الصنائع بالإتقـان قد درست ... فهي الحيـاة لنا والمـال يحيينـــا

ذا القطر سيدنا في حاجة عظمت ... إلى الصنـائع بـل أقصـى أمانينـا

فاهنأ بعيش صفي والله يحرسكـم ... فـي عز ملك غـدا باليمن مقرونـــا

يـا حاضري بيعة للنـاصر ابتهجت ... قـولـوا بأجمعكم آميـن آمينـــا

(ونظمت هاته القصيدة عندما ختم الأستاذ العالم المصلح الشيخ محمد النخلي درس الأربعينيات النووية وسردتها بين يديه ليلة الختم في جامع الخضراوين بالقيروان ليلة 27 رمضان سنة 1322 ونصها:)

فضيلة أهل الفضل بالعلم والتقوى ... فبادر أخا حزم لمطلبك الأقوى
ولا شيء مثل العلم في الدهر للفتى ... به يظهر الإرشاد والدين قد يقوى
ألا إنما الإرشاد حتم على الفتى ... خصوصا وقد عمت على جنسنا البلوى
فكم عالج الأسلاف بالوعظ من غوى ... مخافة أن تسري إلى غيره العدوى
وأفضل أهل العلم من ينفع الورى ... ويرشدهم بالصدق في السر والنجوى
وذلك كالأستاذ من قام مرشدا ... على منهج عدل كفيل بما نهوى
على منهج يحيي رسوم شريعة ... قضت عمرا حلف السيادة والبلوى
يحث على إصلاح حالة جنسنا ... بدنيا ويدعوهم إلى جنة المأوى
وذاك ملاك الدين لا شيء غيره ... وذا مقصد التشريع فيما لنا يروى
بدرس حديث كشف كل غمة ... وساق رؤوس العلم مملوءة تقوى
وذي ثمرات من بساتين علمه ... يشذبها عقل كما الشمس بل أضوى
ومن كان مرماه المعارف ناشئا ... وثابر بالتحقيق غايتها التقوى
وأحرز في التدريس أصعد رتبة ... وجال ميادينا يخف بها رضوى
فلا غرو أن قد كان نفاع أمة ... وصاحب تحقيق وملجأنا الأقوى
نهنيك يا أستاذنا بعناية ... إلاهية خصتك بالعلم لا الدعوى
ودمت قرير العين في ثوي صحة ... وأنت نصير العلم بالنطق والفحوى

(وقدمت للأستاذ الشيخ محمد النخلي القيرواني هاته القصيدة لما ختم درس التوحيد بالمدرسة الخودية بالقيروان عام 1323 وقرأتها بين يديه ليلة الختم ونصها:)

حبذا العلم والحجا والدرايـــــه والتفـــاني في خدمة الدين غايه
أيهـا النـاس دونكم والمعـــالي والترقـي فـــإن في النـوع آيه
أيهـا المسلمـــون ردوا فخـــارا بزه الأجنبي بفضـل السرايـه
واذكـروا مجدكـم وملك أبيكـــم وارفعـوا شـأن دينكم للنهايـه
واقرؤوا في الكتاب دينـا وعلمـــا واهتداء بـه أشـد الوصـــايـه
واعملوا بالذي علمتـم تفـــوزوا من علـــوم درايـــة وروايـــه
وابتنوا سيركم على أس عـــام وتحـامـــوا ضلالـــة وغوايـه
واتركوا الجـــامدين من كـل داع لجمـــود وغفلـــة وعمـايـــه
فرقـة ضـل سعيهـــم وأضلـــوا وتعاطـــوا نميمـة ووشـــايـه
يتراءون بـــالصـــــلاح ظهـــورا والمطاوي قبائـح وسعـــايـه
ذلكم داؤنـا الـــدوي لجهـــل أمن الليـــل تستمد الهدايـــه
واطلبوا العلم من فريـق قليـــل زاده اللـــه وفـــرة ورعـــايـه
من قصارى مناه إرشـــاد قـــوم وإذا مـــا رمى أصـــاب الرمـايه
غاظـه إذ رأى سوانـــا يـرقـى فـي مراقـي سعـــادة وهـدايـه
بعلـوم جذورهـــا فـــي بـــلاد رفعت للهدى بـذا الديـن رايـه
ورأى قومـه علـى ســوء حـــال وابتـــداع وذلـــة ونكايـه
وغـرور ويـــا لـــه من غـــرور واتكـــال بلا اعتمـــال لغـــايـه
لو سألنـا الحكيم عن أصـــل داء لرأى الجهل علـــة والدعـــايـه
صاح فأعشوا لضوء عـلـم تبدى من إمام حوى الهـدى والعنـايـه
عـالـم مصلـح سـري كريـــم مرشد مفصـح جليـل الدرايـــه
قد قضى الـوقت بين علـم وفهـم في دروس بها الهدى والكفايـه
يظهر الديـــن شمسـه تتـــلالا ينصـر الحق إن عرتـه جنـايـه
ما تقاريره سوى السحـر يجلـى فـي مجـاز وملحـة وكنايـه
ذاكم شيخنـا سميـر المعـالـي ذلك الفيصل المصيب الرمـــايه

ذلك الطود ذلك الفحـــل أعظـم ... بـه من مفخـر لنـا وحمايـه
إنـه والإلـــه أستـــاذ علـم ... مذ وعى العلم لم يدع من وعـايه
إن ذاكم (محمد النخلي) من لـم ... يتأيـد إلا بمحض العنـايـه
زارنا في المصيف يرتاض نفسا ... ولعت بـالعلى ففـازت لغـايه
والتمسنا أفضـالـه فهدانـا ... بعلـوم كشـافـة عن غوايـه
وأرانـا الهـدى بـدرس كـلام ... فرفعنـا من البراهيـن رايـه
منة يـا لهـا علينـا وجلـت ... منـة العلم خالصـا كالنقايـه
ودعـاه اهتمامـه إن وردنـا ... ورد ختـم فيا لهـا من عنـايـه
أيها المصلـح الهمـام جزيتـم ... كـل خيـر ومن شـرور وقـايـه
كـان ربـي لكم حفيظـا نصيـرا ... في ابتـدا كـل شأنـكم والنهايه

(وقلت مهنئا العالم المصلح الشيخ الطاهر بن عاشور بخطة النظارة العلمية بجامع الزيتونة الأعظم)

إن الإلـــه إذا أراد بخلقـــه ... خيـرا يعـم كوابـل هطـــال
أسدى المناصب للجهابذة الأولى ... عرفوا بغـزر جلائـل الأعمـــال
ولقد نراك إلـى المراتب راقيـا ... رقيا الشموس إلى بـروج كمـال
فعلمت أن الرشـد مد رواقـه ... مذ قد شهدنـا بـوارق الآمـال
نعم الولايـة (للنظـارة) إنهـا ... سعدت بهمـة (طاهر) الأذيـال
فـاهنـأ بهـا بين الأنـام لأنهـا ... نعم الدليـل على صلاح الحـال

(ونظمت القصيدة الآتية مهنئا بها العالم المستنير مصلح الوقف القيرواني الشيخ محمد المقداد بإحرازه على الوسام التونسي عام 1324)

فخـارك فـي أوج وطـالعه سعد ... ومنشـاه حـزم ومـورده جـد
ومـا زالت الأيـام تبـدي دلائـلا ... على كل اصـلاح وذاك هـو القصد
بجدك قد جليت في مسيق العلـى ... فحزمك فـرد كمـا أنكـم فـرد

وقد عرفت منك السداد وغبه ... حكومتنا الغرا فيا حبذا الرشد
لذلك بالإنصاف منها حبتكم ... وساما على آيات حزمكم يبدو
وخدمتكم تقضي بأكبر شاهد ... ولكن بالتدريج في الأمر يعتد
وسوف نرى أعلى وساما بجيدكم ... (وفي عنق الحسناء يستحسن العقد)
فيا نائبا بالقيروان زكى له ... معطر ذكر منه السنا تشدو
تهنى بنيشان وقلدت غيره ... وذلك عنوان الرضا حفه السعد
حباك به الإنصاف غير معلل ... وحزمكم أعلى وساما به تغدو
ودونك شيئا من قريضي دلالة ... على ما بقلبي من هنا كله ود
ودمت قرير العين مغبوط مفخر ... تحالفك النعمى ويصحبك الجد

(ولما انتقل زعيم النهضة التونسية البشير صفر من وظيف رئاسة الأوقاف بتونس إلى رتبة عامل بسوسة قدمت له هاته القصيدة تحت هذا العنوان: تحية الشبيبة التونسية إلى أستاذنا الحكيم)

تصافحكم من قلبها نشأة القطر ... وتهدي إلى إحساسكم خالص الشكر
وتأسف من وقع الفراق الذي غدا ... على فئة الأحرار كاللدغ في الحر
فراق به نادي المعارف كاسف ... وكل غيور صار مضطرب الأمر
عليك قلوب الناس كالطير حوّم ... على مورد في منزه عابق النشر
وقفت إلى الأوقاف وقفة حازم ... يرى خدمة الأوطان فرضا على الحر
وهذبت أفكارا وأحييت أنفسا ... وأرشدت أقواما إلى سبل الخير
تذب على أبناء جنسك مثل ما ... يذب أخو الإيمان عن حرم طهر
وأودعت في فكر الشبيبة عزة ... وعرفتها أن المذلة للحمر
فكن آمنا والله غرسك مثمر ... ونصحك منقوش على صفحة الصدر
فيا خير قوام على الوطن الذي ... بإرشاده قد حاز فخرا على فخر
بعدت وفي كل القلوب مقركم ... وذكرك محفوظ إلى منتهى الدهر

وشأن ذوي الإصلاح حل ونقلة ... فمثلك مثل البدر في فلك يسري
زففنا إليك اليوم خير تحية ... وأوفر إخلاص وأنت بذا تدري
فمد لنا كف النزاهة والعلا ... وصافح بني الأوطان يا بهجة العصر

(وقلت مهنئا العالم المرشد الشيخ الخضر بن الحسين بخطة التدريس بجامع الزيتونة عام 1325)

أنعم ببشرى بها طير الهنا صدحا ... والقلب من طرب قد صار منشرحا
أنعم بخطة تدريس بها ابتهجت ... نفس الذي عن طريق الحق ما برحا
قد حازها الخضر الراقي بهمته ... صرح المعالي بحزم للسما نطحا
يا ابن الحسين رعاك الله من رجل ... عنه الثناء كمسك في الورى نفحا
أنلت كل صديق من ولايتكم ... كأس المسرة حتى قلبه طفحا
لله درك من فرد به بزغت ... شمس العلوم ومن إيمانه رجحا
والمرء إن حسنت منه سريرته ... نال الكمال وحاز الخير والمنحا
فاهنأ بخطة علم أنت بهجتها ... واسعد بفضلك ما زند النهى قدحا

(ونظمت هاته القصيدة يوم افتتاح مستشفى القيروان الأهلي عام 1327 وألقيتها بمحضر الوزير المقيم ورؤساء الإدارات مرشدا فيها على فعل الخير وشاكرا فضل المؤسسين)

راق صفوي بما حواه جناني ... فكأني في روضة من جنان
رفرف الأنس وسط قلبي حتى ... صار يسمو على الدراري مكاني
طاف بي الصفو في محل أنيق ... كل عن شكر منشئيه لساني
قام فيه من الحنان مثال ... نحو من قد أصيب في ذا الزمان
معشر الناس هل دريتم لماذا ... قد دفعتم لهاته الأكوان
قد خلقتم لكل فعل شريف ... باتحاد ورحمة وحنان

قد خلقتم لأن تكونوا رجالا ... مشفقين على بني الإنسان
يا خليلي أن ذا الدهر حرب ... فيه تبدو فضائل الشجعان
كل من عاش عيشة في جمود ... فادفناه إن كنتما تعقلان
كيف يهدا إلى الصحيح فؤاد ... وفؤاد السقيم في رجفان
قطرة الدمع من جفون سقيم ... قد يضج لهولها الثقلان
أيها الخلق إن في مثل هذا ... قد تشاد شواهق البنيان
هذه الدار أسست لسقيم ... قد يعاني من سقمه ما يعاني
قسموا ذا المحل عن قسمتين ... (للذكور) وراحة (النسوان)
هذه (جنة) وهذا (جنان) ... في ثياب من العلى يرفلان
ليس يجديك يابن آدم شيء ... غير ما فعلت من إحسان
نومة الرمس قد يطول مداها ... فاغتنم فرصة لدار الجنان
إيه يا منزل الفقير ويا من ... صرت مأوى الى شفا الأبدان
ألسن الحال في ذراك تنادي ... للأولى قد أشادوا هذي المباني
فابشروا سادتي بحسن ختام ... واقتراب ورحمة وأمان

(ونظمت هاته القصيدة مقرضا بها تعريب رواية عقد بني سراج تأليف شاطوبريان التي قام به رجل الحزم والعزم محمد المشيرقي المترجم بالكتابة العامة)

أمشيرقي نور فكرك أشرقا ... أبرزت تأليفا به الفكر ارتقى
ونهجت منهاج الأولى نفعوا الورى ... بمعارف تدع الكمال محققا
قدمت للغة الشريفة خدمة ... بنفيس وقتك خير ما قد أنفقا
ورتعت في روض المعارف قاطفا ... زهر الفوائد كالفرائد نسقا
ودللت عن باع بها وكذاك في ... لغة الفرنسيس التي فيها ارتقى
إذ صار أعجمها بحسن بيانكم ... عربيها البحت الكريم المنتقى

وكشفت عن تاريخ قوم سالفا ... كانت لهم كل الكرامة مطلقا
شكرا لكم ولصنعكم من انجب ... به فخر تونس قد غدا متدفقا
ورجاؤنا من مثلكم نسج على ... منوالكم فهو المسبب للبقا
اذ لا بقاء لنا بغير لغاتنا ... والشاهد التاريخ كن متحققا

(ولما أبعدت عن موطني القيروان إلى بلاد توزر بالجريد وكانت مدة الإبعاد ثلاثة أشهر وقد تسبب في ذلك أفراد من أعداء الإصلاح وجدت من أهل توزر إقبالا وكرما جما ومن بين هؤلاء الفضلاء المحسنين العالم الفلكي الشاعر قاضي البلد المرحوم الشيخ يوسف بن عون فكاتبته بكتاب تضمن شكره والثناء على أهل بلده وشفعت نثر الثناء بهاته القصيدة وذلك عند رجوعي للقيروان عام 1317)

ترحلت عن تلك المرابع والقلب ... لديكم رهين إذ تملكه الحب
وفارقت أوطاني وما وطن الفتى ... سوى بلد ورد الأماني به عذب
وغاب عن عيني مشاهد سادة ... هم الأهل في مرآهم الأنس والقرب
فصرت حليف الشوق يأنس خاطري ... بطيف خيال في المنام له هب
على أن خيط النوم ما خاط مقلتي ... سوى فترات لا يخفى بها كرب
وكيف ينام الليل صب مفارق ... ديارا بها قوم كرام همو الصحب
فيا حسن أيام ركبنا مطيها ... إلى مدين الآمال حيث الفنا الرحب
ويا غربة قد أسفرت عن معاهد ... عليها عهاد الأنس عن سحبه كسب
يسمونها نفيا وإنها أثبتت ... لطائف أنس رف من حسنها القلب
وجادت بريحان روح ووصلة ... بها انفصل المكروه واتصل الحب
نزلت على قوم نزيل ديارهم ... نزيل رياض الفضل عاودها السحب
فأنسيت أوطاني وأهلي بقربهم ... أناغي آمالا لا يراع لها سرب
بودهم قد صار طالع كوكبي ... سعيدا بشرق المجد ليس له غرب

همو بدلوا الإيحاش بالأنس والعنا ... براحة قلب لا يخالطها نكب
وهم أرشفوني ثغر يمن وما من ... حلاوته من تمر أرضهم ضرب
تجردت في أرض الجريد عن الضنى ... وعافية ألبست مذ حلها الركب
بها الهمم القعساء والمفخر الأولى ... نموذجها في (توزر) صانها الرب
أليس بها القاضي الذي سيف علمه ... يقد رقاب الجهل حاشاه أن ينبو
وذاك (ابن عون) من أعان نزيله ... على الدهر حتى راق في كأسه الشرب
نزلت فأصفاني المبرة والهنا ... وأرضعني الآداب من علمه يحبو
وطوقني طوق امتنان فها أنا ... حمام بسجع الشكر ما مرت الحقب
وفيا في ظل المودة والرضا ... بروضة أنس دوحها العلم والكتب
أقدت إلى جناته بسلاسل ... من الحكم والإبعاد فانثلج القلب
ولله تصريف يشف صقيله ... على أنه في طيه يحمد الغب
فيا (يوسف)الصديق يا واحد العلا ... ويا جهبذ العرفان يا من هو الأب
ويا ملتقى بحري علوم ونايل ... ويا من بإحراز الفخار هو الصب
عليك سلام يرقم الود برده ... وينشر ري عطره عندكم حب
وينهي لكم تلميذ سدة علمكم ... بأن ضنى الأشواق أعيى به الطب
يحن إلى تلك المعاهد مثل ما ... يحن حمام بان وكره ترب
فلي وطن هذا نزلت ربوعه ... وآخر شط اليوم وانعدم القرب
إلى الله أشكو كيف أحوي كليهما ... وتعليل آمالي بأن تفد الكتب

(نظمت هذا الموشح معارضا به موشح ابن سهل ومهنئا صديقي الكاتب البليغ محمد بن الأمين الخلصي بحلول مصيف عام 1326 ونصه)

صاح هذا الوقت أحيا موسما ... حيا بالأنس جميع الأنفس
وأتانا ثغره مبتسما ... عن سرور مزدر باللعس

وتلاقانا مصيف الوقت في ... موكب من حسنه الزاهي النظير
وأرانا كل معنى يشتفي ... به مكلوم الحشا مما يضير
وجلى مرآة قلب مدنف ... وجلا السعد بأفق مستنير

في رياض نهبت زهر السما ... فهي زهر رائق المغترس
وجلت حسنا بديعا محكما ... يختفي منه ضياء الأشمس

ذا نسيم الصيف في رقته ... ينعش الأرواح في وقت السحر
وترى ذا البدر في طلعته ... مثل وجه الحب لما أن بهر
وقضيب البان في عطفته ... قده المايس لما ان خطر
والأقاح أن بدا مبتسما ... ثغره الأشهى حياة الأنفس
والصبا أن في سحير نسما ... نشره ضاع بأرجا المجلس
وكأن الدوح خود لابسه ... ملبسي حسن ووشي أبدعا
وهي من لقيا الحبيب آنسة ... فلذا ترقص لما اجتمعا
والياه وهي فيه جائسة ... كالخلاخيل أجيدت مصنعا
تنثر الأرواح زهرا ناظما ... عقد در في رقاب الكنس
فترى الطل لها يعتاض ما ... نثرت من كل عقد أنفس

جنـة لـــو أنهـــا دار الخلـود ... فيها للعقـل وللحس المنـــى
طلع الأنس بها سعد السعـــود ... يتحف الزائـر أحـــلى مجتنى
وبها الاقبال فـي أبـهـى ورود ... خاطر يجلو مجـال الاعتنـــاء

فاصطبح أو فاغتبق فيها فمـا ... ضـاعت الفرصـة للمختـلس
وارتشف ثغر كـؤوس كـاللمى ... رق من ثغـر حليـف المـكنس

سر لحلق الـوادي ثم الكـرم ... بين قـوم رضعـوا ثـدي الأدب
أهـل فضـل شهـروا بـالكرم ... من بني الإحسان أبنـاء العـرب
روض الفكـر بـأسمى الحكم ... وابتعد عن كل ما يدنـي الكـرب

إن شـرب الـراح عنـا حرمـا ... أي نفـع فـي شـراب نجس
وكذاك العقـل شـيء عظمـا ... فعلـى عقلك صـلاح لا تـسـي

واغتنم فرصة دهـر قد غفـا ... جفنه عن عيشة تجنـي الأمـال
واسحبن أذيـال لهو قد ضفى ... في مجال بالهنا والأمن حـال
وانعمن بالوصل ممن قد جفـا ... وشاحا وأسـاليب الجمـال

كلـم القلب جراحـا كلمـا ... نحـر الأحشـا بجفـن نعـس
منه مـاء اللطف سيـال كمـا ... سـال من غصن زكـي المغـرس
وجهـه تحت ديـاجي شعـره ... قمـر فـي غسـق قـد أشرقـا
وبـه الحسن بـدا فـي مظهـره ... يـدع الأورع مخلـوع التقـا
صـار ذو العـذل به في عـذره ... مذ رأى بدرا على غصـن نقـي

نقط المسك على خديـه مـا ... دعي الخـال خيـال الحـدس
وكسـى الآس حواليـه بمـا ... بعـذار وسمـو عـن هـوس

آيـة الحسـن خلـوب للنهـى ... مالكي دون فـي الحسن فنـون

كم أنادي شافعي رب البها ... من جفا أنشب في ضفر المنون
وهو في إعراضه دون انتها ... لا يبالي ما أعاني من شجون

صانه الله غزالا قد حما ... روض حسن بصنوف الحرس
فإذا لحظ وفي ذاك الحمى ... راش سهما من جفون نعس

ضبي أنس أسد الإعراض قد ... لان عطفا وقسا قلبا وصال
أين غصن البان إن وافى بقد ... ورأى السلب على حكم الوصال
وإذا أبسم عن ثغر نضد ... لؤلؤا رطبا حماه بالنصال

في هواكم كم به دمع همى ... ليس مثل العارض المنبجس
ولسهدي قد رصدت الأنجما ... فالهوى العذري في عشقي نسي

لم أجد لي مخلصا من ذي الجوى ... غير مدحي للأديب الأوحد
بدر مجد في سما العز بدى ... لوذعي في كمال مرتدي
حافظ للعهد في حال النوى ... وبأسلاف مضوا قد يقتدي

الأمين ابن الأمين الذي سمى ... فرع أصل الفضل لسنى كيس
من بني الخلصي قوم كرما ... لبسوا للمجد أبهى ملبس
يا صديقا قد حوى كل العلى ... هذا وقت الصيف وافى بنسيم
فأهنيكم به ممتثلا ... ومطاعا قول (نيتون) الحكيم
قد أرى أن تهاني الفضلا ... بسرور الوقت ركنا مستقيم

كل من يهوى جناب الحزما ... بات في ظل ظليل مونس
أن ودي لم يزل منتظما ... وعلى طود المعالي قد رسي

فلذا صغت قريضا عسجد ... يتحلى حلية من غزل
ورشفت من نداكم مورد ... ترك الصب حليف الثمل
وازدرى كل نسيب نضدا ... في هوى موسى بوزن الرمل

هل درى ضبي الحمى أن قد حما ... قلب صب حله عن مكنس
وهو في حر وخفق مثل ما ... لعبت ريح الصبا بالقبس

(ونظمت هذا الموشح مخاطبا به صديقي الكامل محمد بن الأمين الخلصي)

بالله يا تحفة الأريب ... وزهرة الأنس والوطر
ماذا دهى عيشة الأديب ... حتى غدت كلها كدر
عيني جفت لذة الرقاد ... من شدة الحزن والمحن
وصرت في مضجعي أنادي ... رحماك يا نشأة الوطن
قومي اخدمن صالح البلاد ... بالحزم والجد والفطن

فما على الفكر من رقيب ... ولا على المرء من ضرر
فكم رقى من فتى نجيب ... وصار بالعلم معتبر
أبناء جنسي غدوا حيارى ... وما لهم في الورى نصير
في الحقد والبغض لا يجارى ... فكر لهم بئس ذا المصير
وصاروا في دهرهم سكارى ... واليسر في وجههم عسير
والفكر من وجبة الوجيب ... قد ضل في حندس الخطر
قل لي أما آن يا طبيبي ... أن تنجلي ظلمة الفكر

نحن الأولى في الدنا تلفنا ... عن منهج الحق والصواب
حل الشقاق وما ائتلفنا ... ولم نع سنة الكتاب
بهذا بين الورى عرفنا ... يا زهرة الأنس والشباب

إياك واليأس يا حبيبي ... فانه شأن من كفر
ما أقرب الخير للمنيب ... وأسرع اللطف للبشر

يـا أهـل دار الهلك إن وجـودكـم فيهـا كبـرق أو خيـال سـاري
ولقـد خلقتم للتعـاون والصفـا فعكستم حكم العلـي البـاري
كم تظلمون ضعافكم في دهركـم ولكـم حملتـم مثقـل الأوزار
ونسبتم للديـن خدعـة مـاكر متأبطـا لنفائـس الأسفـار
ولقد علمت بـأن ديـن جميعكـم ظلـم النفوس وأصفـر الدينـار

* * *

صروف الحادثـات كمثـل بحـر يغطـي كـل عـامرة وقفـر
وأنفسنـا الضعـاف سبحن فيـه وخضن عبابـه بشديد قهـر
وحبـل المـوت يقتـاد البرايـا بعنف شراسة لمضيـق قبـر
ومن عجب تـرى الإنسـان يبـدو بعظـم تجبـر وفظيـع كبـر
فمـن سلك التجبـر بين قـوم فليس يعد فـي الأحيـا بحر
حياتـك إن أردت لهـا اعتبـار فعش في الورى بجميل ذكـر

* * *

ما بالهم لزموا الصلاة ومـا راعـوا حق اليتيم وحالـة البؤسـاء
ولدى المصالـح قـابضين أكفهم متصاممين لدعوة النصحـاء
وعلى الفواحش أنفقـوا أموالهـم وصلاتنا تنهى عـن الفحشـاء

* * *

يـا أهل هـذا الدهـر إن أنفسكـم قد كرمت فـي محكم القـرآن
وحباكم الرحمان كـل فضيلـة وأمدكم بالبـر والإحسـان
فلم التملق نحو أربـاب الغنـى متسـربلين بذلـة وهـوان
وجعلتم أهـل المنـاصب قبلـة يا للفضائح في بنـي الإنسـان
زمن المناصب والنوائب عندكم عـز النفـوس وذلهـا سيـان

إني لأعجب من سقوط نفوسكم أصابكم مس من الشيطان

* * *

جعلوا التمدن للخديعة سلما حتى ارتقوا للرفق بالحيوان
وتقدموا في الرفق...حتى أنشأوا آلات تدمير إلى الإنسان
ما ذاك إلا أنهم قد أشفقوا... عن كل محتقر ضعيف عاني
ورأوا حياة الضعف نوع خسارة فقضوا عليها بألسن النيران

* * *

فتحوا ديار العهر ما بين الورى كيما يروج الفسق دون حجاب
ومن الغريب أباحوا في قانونهم بيع الخمور لضيعة الألباب
ولقد أشادوا للقمار منازلا في ضمنها فقر وعظم خراب
ومن العجائب أنهم حكموا على أهل الثلاثة من فصول عقاب
هذا هو الأمر الذي قد حرت في تفسيره ومكثت في استغراب

* * *

عبثا تحاول منهم أن يقطعوا سلع اليهود لأنهم أعداء
وهم الأولى ألفوا التقاطع بينهم والى العدو ومكره صدقاء

* * *

وصف التكبر قد يزري بصاحبه ولو رقى عن سرير الملك أزمانا
أما به غضب الرحمان عن ملك حتى غدا بشموخ الأنف شيطانا

* * *

مرقوا وضنوا أنهم بمروقهم قد زعزعوا ركنا من الإسلام
وتراهم قد يسخرون بدينهم وبجنسهم عمدا بشهر صيام
تركوا الصيام وبالضلال تجاهروا وتسابقوا زمرا لكل حرام
تعسا لهم فلقد أضاعوا حياتهم بين الطعام وبين كأس مدام
لبسوا السواد تشبها بفعالهم فكأنهم نوع من الأنعام

أراك من الهجـــران قد مسك الضـر ... ولا عجب فـالعشـق مسلكـه وعـر
علمت وعلمي اليـوم تجريب عـاشق ... بـأن الـذي يهـوى يضـاده الدهـر
زفيـر من الأشـواق غيـر حـالتي ... وأورثني حـالا يـرق لـه الصخـر
وقلبـي فـي أسـر من الحب ضيـق ... وفي طاعة المحبوب يحلو لـي الأسر
فـلا لـذة فـي الحب إلا وطيهـا ... مرارة هجـران يضيـق بهـا الصـدر
فلو سئلت نفسي عن الصعب في الدنـا ... وما سكرات الموت قلت هـو الهجر
سئمت وأيـم اللـه من طول عيشتـي ... لأني أرى المهجـور راحتـه القبـر
وأعجب ما عندي حياتي فـي الـورى ... وكيف من الأشواق لا ينقضي العمـر
أريد انفكاك النفس عـن طـرق الهوى ... فيجذبني وجـه لـه سجـد البـدر
ويقتـادني داعـي الصبابـة نـحوه ... فأخضـع إجـلالا وإن عظـم الأمـر
فـذا حر أنفـاسي كنيران فـارس ... وذا دمع أجفانـي يضارعـه البحـر
أقـول لمـن يهـذي علـي بلومـه ... مقـالك يـا هـذا يضارعـه الكفـر
أتنكر ضوء الشمس يـا جـاهل الهوى ... ومن غرة المحبوب قـد طلـع الفجـر
وكيف أصيخ السمـع منـي للائـم ... ومن طـرف اللـوام قـد ينتج الشـر
ونفسي من أهـل التطفل فـي عنا ... فريـق مـن الأرذال أضخمهـم غمـر
إذا اضطربت نفسي أقول لهـا اسكني ... فمـا عسـرة إلا ويتبعهـا اليسـر
لئن نلت في الدنيـا مـرادي والمنـى ... وواصلني المحبوب تم لي البشـر
وإن قـد بقـا صـد ولسـت بدائـم ... فرح أيها المحبوب موعدنـا الحشـر

(وقلت في الغرام أيضا)

جفوني على فقد الأحبة تدمع ... وقلبي من حر الجوى يتقطع
وإني أنا الصب الكئيب الذي غدا ... بلوعة أهوال الصبابة موجع
صبور على حر الغرام ولم أزل ... عبيد إلى أهل المحاسن أخضع
نهاري أقضيه بكل تفكر ... وبالليل سهران لما أتوقع
فلو أن أشواقي جميعا تجمعت ... لضل بها الطود العظيم يصدع
فما قطرات السحب إلا مدامعي ... وما صعقات الرعد إلا التوجع
وكل سحاب الغيث لا شك راحل ... وسحب دموعي اليوم لاتتقشع
مواكب أهل الحل لست أهابها ... ولكنني للحسن بالقهر أخشع
أرى الذل في شرع المحبة عزة ... وإني بما يهوى خليلي مولع
فلو تذق العشاق حر صبابتي ... لأني إمام العشق والقوم تبع
فكم سهرت عيني وكم ذقت من جوى ... وحبّي في ربع المسرة يرتع
وكل الذي يهوى فلا شك في عنسا ... ولكن عنائي اليوم أدهى وأفظع
إذا ذكر المحبوب ذبت لذكره ... وهاج بي الوجد الذي ليس ينزع
وما ضرني إلا تطفل معشر ... عن المورد العذب الذي ليس يشرع
وشاة حووا في الدهر كل نقيصة ... وراموا افتكاك الحب مني وزعزعوا
وما زلت في شرع المحبة ثابت ... ومن نبحهم والله لا أتورع
وما كادني إلا ضياعي وحرقتي ... ومثلي في حكم الهوى لا يضيع
ودهري كما شاء العدو إساءة ... ولكن بسيف الصبر جوره أدفع
إذا أظلمت عني حوادث قهره ... ترى قبسا من نور صبري يسطع
ونحن بني الأشراف قوم رقابنا ... بكل الذي يرضى المقدر خضع
ولكن سلطان الهوى قد أذلنا ... ومن ذا الذي في الكون حكمه يدفع

أقول ودمع العين جرح مقلتي ... وقلبي كساعات من البين تقرع
أحبابي إن العشق غير حالتي ... ولست من الأشواق بالليل أهجع
فهجركم عدل وصدكم رضا ... وإني لما شئتم من الفعل أطوع
فيا أيها الضبي الذي لفتاته ... ترد ضياء الشمس من حيث تطلع
مرادي أن ترضى علي فإنني ... بحسنك من جور لكم أتشفع
فهجرك لي نار وقربك جنة ... ومنطقكم شهد لسقمي ينفع
وغاية ما أبغي اتصال ونظرة ... وإني في عيشي بذاك أقنع
فكن منقذي مما أضر بمهجتي ... و إلا ففي يوم القيامة مجمع

(وقلت في الغرام)

كيف اصطباري ومن أهوى نآى ... فقمت أطلب عن ترحاله نبآ
شوقي إليه عظيم الوجد حركه ... والفكر منه بعد الذوق قد صدآ
هجر الأحبة أضناني وأتعبني ... وكأس صفوي من الأكدار قد ملآ
لم التنادي وإني صادق لكم ... وفي المودة لم أظهر لكم خطآ
يا أنس وحشي هذا الجسم في تلف ... رفقا فقلبي لورد القرب قد ظمآ
فكم أراعي نجوم الليل من أرقي ... والجسم من سقم الهجران ما برآ
قلبي المعنى سرى في ملك حسنكم ... لم يكذب القلب فيما قد هوى ورأى
خلفتني يا حياة النفس في كدر ... شوقي يزيد على من فارقت سبآ
كن كيف شئت فإني في الهوى لكم ... طوعا وشوقي لكم قطعا كما بدآ

(وقلت)

قوم بأحكام الغرام لقد قضوا ... وإذا نظرت إلى محاسنهم لووا
فالشمس تشرق في سماء وجوههم ... وعلى ذرى عليا المحاسن قد سموا
فهم سلاطين المحاسن كلها ... وعلى منصات المحاسن قد علوا

عهدي بهم حفظ المـودة والإخـا سلكـوا طريقـا للوداد ومـا سلـوا
فجفونهـم تغنـي المحب عن الطـلا وإذا رنوا باللحظ عقلي قد سبـوا
مه يـا عـذول فلست أول من هـذى إني على عهـد الوداد وان جفـوا

(وقلت)

ما لج أهـل الهـوى فـي لجـة الكـدر إلا الـذي قد بـدا من فتنـة النظـر
عين رأت منظـرا فـي الحسن لـذ لهـا يا صاح كيف النجـا من رميـة الحـور
فالفكـر في كـدر والقلـب في خطـر والجسم في ضرر والعين في سهر
ما باختياري أقاسي لوعـة وضنـى لكن صروف الهوى جاءت على قـدر
قد قيل لـي والهوى جبـرا يقلبنـي على فـراش الجـوى والقلب منكسـر
هـذا العنـا كلـه قـد جـره بشـر فقلت كـلا ولكـن جـره قمـري
كم بت أرعى الدجى والعيـن في أرق والليل في مأتم قد هالـه ضـرري
لم أبتكر حيلـة أقضـي بهـا أربـي كـلا ولا مؤنس أنهـي لـه خبـري
كم من أنـاس لنـا أبـدوا مصادقـة لكن قلوبهـم أقسـى مـن الحجـر
يا لائمي في الهـوى كف المـلام فلـو أبصرت حسن الذي أهواه كنت بري

في مدح أشرف العالمين عليه السلام

قلبـي يحن ومهجتـي تتقطع ... وسحابـة الهجـران لا تتقشـع
وزفير وجدي كلمـا هبت صبـا ... أبـدا يؤججه الفـراق المفجـع
لا البحر يطفي حر نـار صبابتـي ... ما حيلتي يـا من إليـه المرجـع
وقلوب عشاق الجمـال ضعيفـة ... وبغيـر ميمـون اللقـا لا تقنـع
كم ذا أعذب بالصـدود والجفـا ... وعقارب الهجـران قلبـي تلسـع
فأنا القتيل بسيـف من أحببتـه ... سيف اللحاظ وأي سحـر تـودع
وإذا تعلقـت القلـوب بشـادن ... فأنـا بحب المصطفـى أتـرفع
ذاك الـذي خضـت لهيبـة حسنه ... وجلال شرعته الكمـاة الشجـع
ذاك الـذي سعدت بنور ظهـوره ... هذي البسيطـة والخلائق أجمـع
سطعت على الأرجاء شمس محمد ... فغدت لها أهل الهـداية تهـرع
بعث الإلـه نبيـه برسـالـة ... فيهـا سعـادة كل من يتطلـع
حيث النبوءة قـد بدت آيـاتهـا ... وغدا لآلهـة الضـلال تصـدع
والشرك قد محيت حولك جهلـه ... ولقد بدا نـور الرسالـة يسطـع
ومكثت يا مختار تدعو ولي النهى ... وعنـاية الرحمـان نحـوك تسـرع
وحشدت نحو المشركين ضراغما ... كـل لـه فـي ذا الجهـاد تـولـع
وأقمت دين الله يـا علم الهـدى ... حتى رحلـت وللإلـه المرجـع
يا مصطفى أنا في جمالك عاشق ... ولقد تركت هـوى الذي لا ينفـع
وأنـا بحبـل جنـابكم متمسـك ... والـى الحليـم بجـاهكـم أتشفـع
دهـري تنكر والخطـوب كثيـرة ... وجنابك العـالـي يصـد ويدفـع
إن فـوق الأضـداد نحـوي أسهمـا ... ورمانـي القـالـي فسيفـك أقطـع
نرجو انعطافك يـا محمد يـوم لا ... تغني شفـاعة كـل من يتشفـع
فهنـاك تـوذن إذ تقـول أنـا لهـا ... فيـزال عن كـل العبـاد تـروع
يـا أهـل ذي البلـد المكـرم إنكـم ... بمـآثـر الأسـلاف قـد تترفعـوا

نعم المآثر مثل جامعنا الذي ... رفعت قواعده الرجال الخشع
ومقام ذا البلوي أكبر عبرة ... لمن اغتدى لذوي المصالح يتبع
ومآثر الأسلاف فيها مفاخر ... إن كان فيها للمخلف مهيع
لكن إذا لم نقتفي آثارهم ... في البر والتقوى فماذا ينفع
هذي مآثرهم وهذي حالنا ... عم التقاطع والكمال مضيع
لا عز إلا في اتباع محمد ... فهو المخلص والدواء الأنجع

ندعوك يا الله بالفضل الذي ... فيه إلى كل الخلائق منبع
وبأشرف الثقلين والآل الأولى ... بهم العذاب عن الخلائق يرفع
وبسر كل الصحب أقمار العلى ... أهل السعادة والهدى لما دعوا
وبحرمة البلوي خير مجاهد ... رفع القواضب في الوقائع تلمع
وفق جميع المسلمين إلى الهدى ... واصرف بفضلك هول ما نتوقع

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الأديب المغمور

رغم ريادته الفكرية والأدبية بقي صالح سويسي مغمورا. فنحن لا نعرف من أدبه إلا القليل النادر. بل نكاد لا نعرف شيئا عن إنتاجه الأدبي طيلة العشرين سنة الأخيرة من حياته. فنحن لا نعرف مثلا مدى تفاعله مع الحركة الوطنية، أو مع مختلف القضايا التي برزت في تلك الفترة من حياته. وبالمقابل، لا يمكن أن نسلم بأن عاطفته الفياضة وشعوره المرهف لم يتأثرا بتلك التيارات الجديدة. ولعل البحث في بطون الصحف والمجلات التي صدرت في ذلك الطور من حياته يكشف لنا عن تلك الجوانب.

وقد أبدى الدكتور أحمد الطويلي اهتماما بآثار صالح سويسي المخطوطة، فعرّف بها في سلسلة من المقالات صدرت بالملحق الثقافي لجريدة (الحرية)، نقتبس منها ما يلي تعميما للفائدة، واستكمالا للصورة التي أردنا أن نقدمها عن هذا الأديب :

ـ سفينة نوح : وقد سبق الإشارة إلى ما ذكره محمد الحليوي من أنها مجموعة من الكراسات كان صالح سويسي يدون فيها ما يروقه من مطالعاته. وهي تتكون من ستة أجزاء،نذكر منها :

ـ الجزء الأول، جمعه سنة 1324 هـ، ويقدمه صاحبه بقوله : "إني قد طالعت من كتب الأدب ودواوين الشعر عددا كثيرا لا

يدخل تحت الحسبان، غير أن الإنسان إذا أمعن النظر في كتب الآداب يجد غرر القصائد والنكات اللطيفة والبلاغة الساحرة أندر من الكبريت الأحمر، ولذلك أردت أن أجمع في هذا الكتاب البعض من نظم شعراء الجاهلية والإسلام مما يروق لعاشق الأدب وأرباب الذوق السليم والله المستعان"

- الجزء الثاني، وعنوانه " من لباب الشعر، سفينة نوح لجامعه وكاتبه فقير ربه صالح بن عمر سويسي الشريف القيرواني"، جمعه عام 1324هـ، وصدره بقوله : " قد سنح لي في بداية عام 1324 أن أجمع شيئا من مختارات الشعر البليغ في كتاب سميته سفينة نوح، جمع الجزء الأول منه في شهر رمضان من العام المذكور، وهذا الجزء الثاني"

- الجزء الثالث، وجمعه سنة 1327هـ، ويقول د. أحمد الطويلي إن هذا الجزء يحتوي، إضافة إلى عديد المنتخبات الشعرية، قصائد من نظم صالح سويسي.

- منتخبات من جريدة (العروة الوثقى): وهو مخطوط في 117 صفحة، احتوى على ثلاث مقالات من هذه الجريدة التي أسسها الشيخان محمد عبده وجمال الدين الأفغاني. كما يتضمن المخطوط على مقالات أخرى سلفية وأدبية ذات طابع اجتماعي وإصلاحي، منها مقالة لزكي الدين سند، صدرت بمجلة (مكارم الأخلاق) سنة 1318هـ، عنوانها "الله والكون"، وكلمات لعبد السلام ذهني المحامي المصري، نشرت في جريدة (المؤيد) تحت عنوان "التضامن العمراني"، يعلق عليها صالح سويسي قائلا: "هذه كلمات كالدر قذفت من صدف فم عبد السلام ذهني ولما قرأتها وقعت في قلبي موقع نجاح

الدواء في جسم العليل". ويختم هذه المختارات بقصيدة لمعروف الرصافي عنوانها "اليتيم في العيد"، وبمقالة في البداوة والحضارة للخوجة البولاقي.

ـ تاريخ وفيات أعاظم العلماء والرجال المشاهير: جمعه سنة 1325هـ، ويقع في 70 ورقة من الحجم 22/16. قدمه بقوله: "إنه لا يخفى على كل ذي لب سليم أن النفس تميل إلى تراجم أعاظم الرجال وتاريخ وفاتهم ولذلك جمعت في هذا الكتاب تراجم البعض منهم سواء كان من أهل الإسلام أو من الأجنبيين عنه لهم أعمال عظيمة واختراعات مفيدة، إذ لا يخفى أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها وبذلك يرفع الاعتراض والانتقاد من الجامدين الذين أقروا البدع وأضروا أمة الرسول وإلى هنا نخوض عباب المشروع والموفق والجمعين".

* * *

يقول الأديب الناقد يحيى حقي " ما أشد الأيام في عدوها...نصف قرن وليس غير يفصلنا عن عهد إذا رجعنا اليوم إلى أخباره، حسبنا أنفسنا نكتشف أمة غريبة عنا..."

ويقول عز الدين المدني في نفس المعنى، متحدثا عن معاناته في جمع شتات أدب علي الدوعاجي : "...كأنك تبحث عن إنتاج أدبي مجهول لأديب عاش في القرون الوسطى أو في بلاد غير بلادنا..."

ألست معي أنهما يتحدثان عن صالح سويسي؟

(1) محمد الفاضل ابن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية في تونس)، الدار التونسية للنشر / تونس، 1983

(2) محمد الفاضل ابن عاشور (أركان النهضة الأدبية بتونس)، مكتبة المنار / تونس، بدون تاريخ

(3) محمد الحليوي (في الأدب التونسي) / تونس، 1969

(4) زين العابدين السنوسي (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) الجزء1 / تونس 1927

(5) صالح سويسي القيرواني (ديوان صالح سويسي القيرواني)، الدار التونسية للنشر / تونس، 1977

(6) الشاذلي عطاء الله (ديوان الشاذلي عطاء الله)، الدار التونسية للنشر / تونس، 1988

(7) مصطفى الحبيب البحري (صالح سويسي القيرواني)، مجلة (الفكر)، السنة 25 / العدد 3، ديسمبر 1979

(8) محمد محفوظ (تراجم المؤلفين التونسيين)، ج.3 /ص. 91 / دار الغرب الإسلامي / بيروت، 1986

(9) صالح سويسي (الهيفاء وسراج الليل) / الدار التونسية للنشر / تونس، 1978 / قسم ترجمة المؤلف بقلمه

(10) المرجع أعلاه / قسم المقامات

(11) محمد الفاضل ابن عاشور (أركان النهضة الأدبية بتونس)

(12) منجي الشملي (خير الدين باشا)، الدر التونسية للنشر / تونس، 1968

(13) أحمد بن أبي الضياف (اتحاف أهل الزمان)، ط.2 / الدار

التونسية للنشر / تونس، 1985

(14) محمد الفاضل ابن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية بتونس)

(15) محمد الحليوي (في الأدب التونسي)

(16) انظر : المنصف الشنوفي (مصادر عن رحلتي الإمام محمد عبده إلى تونس) نشر بـ (حوليات الجامعة التونسية/ العدد4 / 1966 و الحبيب الجنحاني (الحركة الفكرية التونسية في مطلع القرن العشرين) نشر بمجلة (الفكر)، العدد34، سنة 1984.

(17) خير الدين باشا (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، الدار التونسية للنشر / تونس، 1972

(18) شارل أندري جوليان (المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي)، معرب.

(19) محمد الفاضل ابن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية بتونس)

(20) محمد الحليوي (في الأدب التونسي)

(21) (آثار الشيخ محمد النخلي)، جمع وتقديم عبد المنعم النخلي / تحقيق ومراجعة حمادي الساحلي / دار الغرب الإسلامي / بيروت ، 1995

(22) محمد بوذينة (مشاهير التونسيين)، نشر محمد بوذينة / تونس، 1992

(23) محمد الفاضل ابن عاشور (أركان النهضة الأدبية في تونس)

(24) محمد الحليوي (في الأدب التونسي)

(25) نجوى الكافي (صالح سويسي، الأديب والمصلح الاجتماعي)، مقدمة كتاب (ديوان صالح سويسي القيرواني)

(26) أبو القاسم الشابي (الأعمال الكاملة / ج.2) خمس رسائل تنشر لأول مرة (ص. 289-290 و 300-301)

(27) (آثار الشيخ محمد النخلي)

(28) أحمد الطويلي (رسالة من الشاعر بوشربية) نشر بجريدة (الحرية) ـ الملحق الثقافي / 1999/02/04

(29) محمد الفاضل ابن عاشور (أركان النهضة الأدبية والفكرية بتونس)

(30) (آثار الشيخ محمد النخلي)، القسم الثالث، ص. 297

(31) محمد الحليوي (في الأدب التونسي)

(32) زين العابدين السنوسي (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر)

(33) محمد الفاضل ابن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية بتونس)

(34) محمد صالح الجابري (القصة التونسية، نشأتها وروادها)، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله / تونس، 1975

(35) حنا الفاخوري (الجامع في تاريخ الأدب العربي ـ الأدب الحديث)، دار الجيل / بيروت،1076

(36) محمد الفاضل ابن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية بتونس)

(37) فوزي الزمرلي (الحركة القصصية في تونس، من النشأة إلى الاستقلال)، مجلة (الحياة الثقافية)، العدد 34/ سنة 1984

(38) يحيى حقي (فجر القصة المصرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة 1975

(39) أنظر : محمد صالح الجابري (الأدب التونسي الحديث والمعاصر)، من كتاب (تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر)، بيت الحكمة / قرطاج 1993

(40) منجي الشملي (قضية المرأة في تفسير المنار)، حوليات الجامعة التونسية / العدد 3 ، 1966

(41) راجع : مختار العياشي (البيئة الزيتونية 1910 ـ 1945)، تعريب حمادي الساحلي، دار التركي للنشر / تونس، 1990. راجع أيضا مسألة (رسالة هتك الستر) في كتاب (سياسة حمودة باشا في تونس)، تأليف رشاد الإمام، منشورات الجامعة التونسية / 1980

(42) محمد الفاضل بن عاشور (الحركة الأدبية والفكرية بتونس)

(43) محمد الفاضل ابن عاشور : المرجع السابق

(44) في حديثه عن تقاعس العلماء "الجامدين" ومواقفهم من العلماء المستنيرين، يشير المؤلف لمعارضة شيوخ الزيتونة للمحاولات الإصلاحية التي بادر بها الشيخ محمد النخلي لإصلاح التعليم الزيتوني وتطويره ليشمل العلوم العصرية.

(45) أمكن لنا التعرف على شخصية يوسف النبهاني من كتاب (الأعلام الشرقية في المئة الرابعة الهجرية)، تأليف زكي محمد مجاهد/ دار الغرب الإسلامي / بيروت، 1995

(46) سنعتمد النص الصادر بجريدة (القيروان) سنة 1921. وسنحاول تقديم رواية الهيفاء وسراج الليل في أكمل صورة ممكنة، وقد اعتمدنا أساسا النص الصادر بجريدة القيروان سنة 1921. كما سنحاول التأليف بين مختلف النصوص مع إبراز ما هو مأخوذ من مجلة (خير الدين)، ونشير إليه برمز (خد)، وما هو في نص جريدة (القيروان)، ونشير إليه برمز (ق)، وما وجد مخطوطا، مع الإشارة إليه برمز (خط)، أما الفقرة التي أضيفت في طبعة الدار التونسية للنشر فسنشير إليها برمز (ن). كما سنستعمل نماذج مختلفة من الخط ليسهل التعرف على هذه العناصر المختلفة.

(47) التقديم الذي وضعه المؤلف عند نشر الرواية بجريدة (القيروان)

(48) الجملة بين قوسين من (خد) وحذفها المؤلف في (ق)

(49) في (خد) سراج الليل

(50) في (خد) اللؤلؤ

(51) في (خد) "لأن العائلة هي المدرسة الأولى"

(52) محذوفة في (ق)

(53) في (خد) : "...ومرادي أن أرسلك إلى مصر لتلتقط من بحار أساتذتها الجواهر العلمية كما كان أبوك يغوص لالتقاط الجواهر الحقيقية، وجواهر العلوم أغلى، وغواص بحارها أشرف وأعلى، وقد عزمت بإعانته تعالى على إرسالك في الأسبوع القابل إلى مصر صحبة الشيخ محمد رشيد الشامي الذي قصد بلادنا في هذا الصيف لأن الستاذ رجل له غيرة على أبناء دينه. وقد أخبرني أن بمصر جمعيتين إسلاميتين إحداهما تسمى "الجمعية الخيرية" والأخرى "شمس الإسلام"، وأريد أن أوكل الأمر إليه في اختيار إحداهما لك لتتربى يا سراج..."

(54) هنا ينتهي الجزء المنشور بالعدد 15 /يوم السبت 30 جانفي 1921، من جريدة (القيروان) المكتبة الوطنية / قسم الدوريات، مسجل تحت عدد: دو 379 / القيروان.

(55) نسي المؤلف تغيير مصر بالقيروان في هذا الموضع.

(56) في (خد) "...و تهافت كل منهم على بز النفع الشخصي"

(57) في (خد) "..لكونه سراجا وهاجا"

(58) في (خد) "هواؤها"

(59) حذفت هذه الفقرة من (ق)

(60) حذف المقطع من (ق)

(61) نهاية ما نشر بمجلة (خير الدين) العدد 7/ غرة شعبان

1906/1324، المكتبة الوطنية / قسم الدوريات، رقم: دو 19 أو 5155 ص.

(62) هنا ينتهي ما نشر من الرواية في جريدة (القيروان) ـ العدد 20/ يوم السبت 19 مارس 1921. وكل ما يأتي بعد ذلك يمثل الجزء المخطوط الذي لم ينشر في حياة المؤلف. وقد عمدنا إلى إدخال بعض التحويرات على النص الذي صدر عن الدار التونسية للنشر تمشيا مع السياق الذي اخترناه، فأبدلنا اسم الشيخ محمد رشيد الشامي بـ"الشيخ النخلي" وعوضنا مصر بـ"القيروان".

(63) أضاف الناشر (الدار التونسية للنشر) هذه الفقرة للربط بين ما نشر في حياة المؤلف وما وجد مخطوطا

(64) أضفنا هذه الفقرة القصيرة إمعانا في ربط المعنى ـ على أسلوب صالح سويسي ـ بين الجزأين المنشور والمخطوط

(65) هنا ينتهي كل ما هو معروف من الرواية، فهل هي الخاتمة التي أرادها المؤلف أن تكون مفتوحة على الرجاء والإيمان بالمستقبل؟ أم هناك بقية من الرواية ضاعت؟ أم عجز المؤلف عن إتمام روايته كما ذهب إلى ذلك بعض الناقدين؟ يبقى السؤال مطروحا ما لم نتحصل على دليل قطعي يثبت هذه النظرية أو تلك.

(66) مصطفى الحبيب البحري (صالح سويسي القيرواني)

(67) نشر قصيد صالح سويسي في جريدة (الحاضرة) يوم 02 أكتوبر 1900، ونشر قصيد الشيخ محمد النخلي بنفس الجريدة يوم 30 أفريل 1901، وذلك حسب ما أورده الشيخ الفاضل بن عاشور في (أركان النهضة الأدبية والفكرية بتونس)، ص.277.

(68) الحبيب بن فضيلة (صالح سويسي القيرواني، شاعر الإصلاح الاجتماعي)، جريدة (الحرية) ، الملحق الثقافي، 1999/02/04

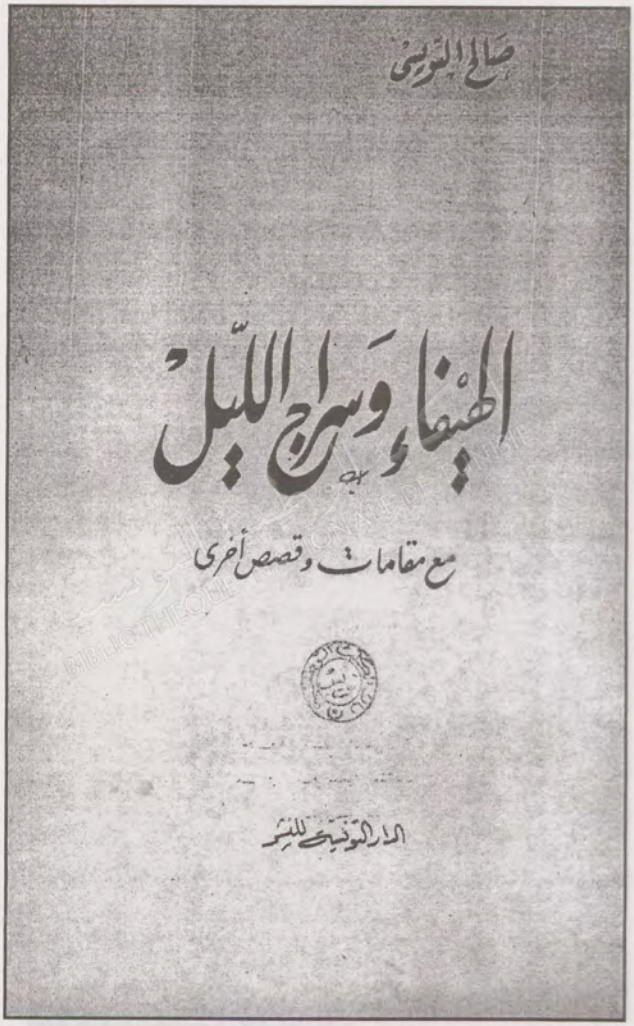

- أصدرته «الدار التونسية للنشر» ديسمبر 1978

كتاب

منجم التبر (في) النثر والشعر

من انشاء وضيع الفاضل الاديب والمرشد النصيح الاريب
السيد صالح سويسي الشريف القيرواني
حفظه الله تعالى

الجزء الاول منه يشتمل على المقالات العلمية والقصائد الحكمية
التي نشرت بالجرائد والمجلات التونسية

(الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م)
على نفقة محمد الامين الكتبي وشركائه أصحاب المكتبة العلمية بتونس

« حقوق الطبع محفوظة للمكتبه باذن المؤلف »

« طبع بمطبعة السعادة بجوار ديوان بمحافظة مصر — لصاحبها محمد اسماعيل »

كتاب «منجم التبر في النثر و الشعر»
نشر مطبعة السعادة - مصر - 1906

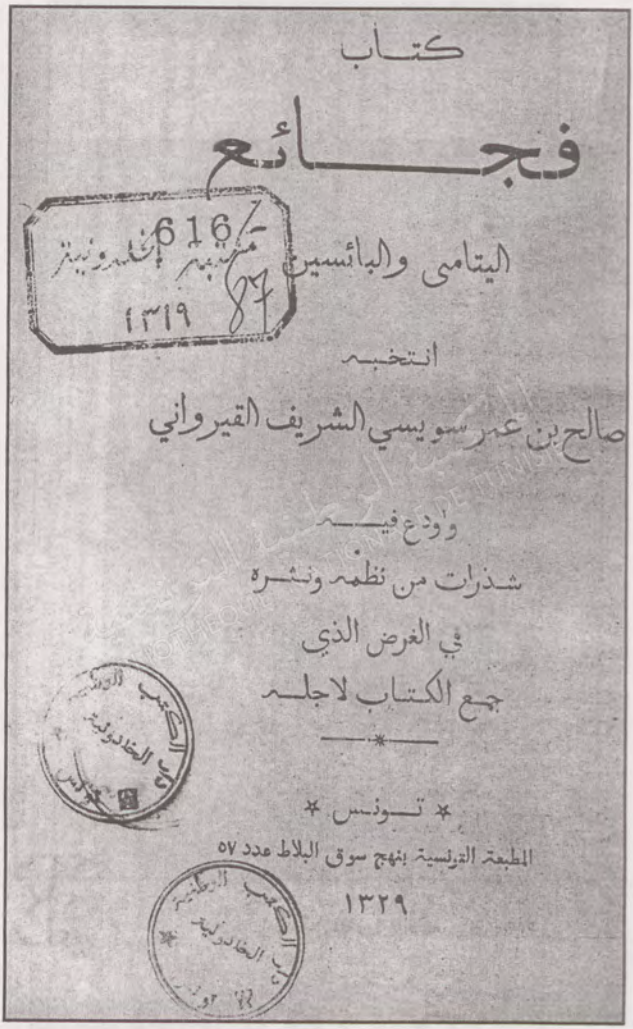
كتاب

فجائع

اليتامى والبائسين

انتخبه

صالح بن عمر سويسي الشريف القيرواني

وودع فيه

شذرات من نظمه ونثره

في الغرض الذي

جمع الكتاب لاجله

تونس

المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد ٥٧

١٣٢٩

- كتاب « فجائع اليتامى و المساكين»
نشر المطبعة التونسية - 1911

- أصدرته «الدار التونسية للنشر» 1979

المقالة الاولى

﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ﴾
﴿ لآيات لاولي الالباب ﴾

سبحان ربي ما اجل حكمته . وما ارشد آياته . وما اتم صنعته كيف خلق الانسان عليه البيان وعلمه على بدائع هذا الكون دلائل قدرته وجعله رسولا على كل امر مسير . الهمه شكره . وحتم عليه شكره . وفتح بصره وبصيرته لكي يتفكر في عجائب هذين الكونين الرديين . يسبح بانفاسه الى ذرى الهية الزرقاء . قد رصعت بدرر النجوم الزاهرات . والقمر ملك الدنيا على الارض والسموات . غرائب طويلة ثابتة بمقتضى السر المكنون وكل في فلك يسبحون . كل بمشاهدة كونية تدل على وجود الصانع وعظمة المبدع يرتد فهم المتدبر فيها على الاعراف . ويوجد به اليقين ادراك حقيقة ما هيته . انه الحق والامر تبارك الله رب العالمين . لكن الناظر المتبصر في الملكوم المفكر اذا حول نظره من عجائب ما علاه . وطويل الاجيال الدقيق في العالم الارضي الذي فيه مولده ومنشاه . وراى انه يسوق بقضي الاحكام الازلية الى عمران هذا العالم الذي نراه . الى ان يكون هيكلا لموجوداته البرزخية جملة حيوان اعجم واصنافه — قد قال تعالى ومن اصدق من الله قيلا — ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا . ثم ان هذا الكائن الضعيف المخلق في بيداء هذا الكون العظيم قد وجب عليه ان يبدد جنني صوره عبادة تتزايد حدود مقاله بسوابغ النعم . وتهلة الفضل والكرم — جل ذاته

ج - ١ - ٢.١٦٥ . OR. I

زفرات الضمير منتظم ونثر

تاليف صالح سويسي القيرواني

الطبعة التونسية تونس ١٣٢٩هـ

جنيه واحد الجزء ١٥٪ × ٤٪ ص ٩٧

Zafarat ad damir [prose and verse] by Salih Al Suwisi al Qayrawani.

المقالة الرابعة عشرة

في حالة الضعفاء بين الاقوياء

اي لسان ام اي قلم يستطيع الكتاب البليغ ان يشرح ما تقاسيه الضعفاء من القسات الثلاث الذين استباحوا جدوى المخلوقات وملسوا نور الحق بظلمات ظلمهم ودوسوا اعناق امرهم تحت اقدامهم ودوا حضاريا ذكروا هم ايضا ذوا الدور الكبير كلهم الصبر ويوم الحساب امامهم والقوي الذين لا تخفى عليه خافية ذره من امرهم

من لي بالبرين من الانسة افصح بها عن سوء حال الضعيف وما يجابه من المصائب والنوائب الجسيمة في هذا الوجود . يرى الشرور باسمة . والاجساد صحيحة . والاقوام في عيشة راضية وهو سير الكآبة يقيم الجلد البراء المبغة فاتح الكبس مكان القلب من الهموم والاحزان

شاهدت في مرسح هاته الحياة . ناظر لو تجسمت لجبت ثلاثا كركب الشمس . واحرقت نيرانها كل نفس .

رايت الفقراء من اصحاب الحقوق المهضومة . والانفس المظلومة . والقلوب الواجفة الوالهة واللغم والهلكم والصنع وسترسل عليهم من افراد اهانهم اقتناص الاشقال وارذل الخدم . شاهدت الارملة والفقير الرقيم واليتيم البئيس الذين هانت عليهم البشر ينتصون دماءهم ويشيحون اكل اموالهم ولا من مغيث

أحمد بن عبد الله

تونس

* من مواليد 1953.
* درس بكلية الآداب و العلوم الانسانية بتونس.
* متحصل على الأستاذية في اللغة و الأدب الفرنسي مع تخصص في النقد الأدبي
* حاصل على الجائزة الثالثة لمهرجان الشعراء الشّبان (مهرجان الحمامات، 1979).
* يشغل حاليا خطة رئيس مصلحة التعاون مع اليونسكو باللجنة الوطنية التونسية للتربية و العلم و الثقافة.

المحتوى

* للتذكير و التواصل 2
* **الباب الأول** : حياته 4
* **الباب الثاني** : الأديب الصحافي 28
- منتخبات من نثره 36
- ريادته في الأدب القصصي بتونس 59
- روايته «الهيفاء و سراج الليل» 82
* **الباب الثالث** : الشاعر 116
- منتخبات من شعره : من ديوان « زفرات الضمير » 127
* الخاتمة : هل هو أديب مغمور؟ 182
* الهوامش - المصادر - المراجع 185
* ذاكرة وذكرى : توثيق فوتوغرافي 191
* منجز هذا الكتاب : أحمد بن عبد الله 196
* المحتوى 197
* إصدارات سلسلة « ذاكرة و إبداع » 198
* الكتاب [16] المقبل : محمد صالح المهيدي 200
* دعوة إلى الإسهام في مزيد إثراء رصيد هذه السلسلة 201
* « ذاكرة وإبداع » في « السنة الوطنية للكتاب » 202

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

مجموعة «ذاكرة وإبداع»

(2003 - 1997)

العدد الرتبي	الكتاب	تجميع و تقديم
1	ديوان الطاهر الحداد	محمد أنور بوسنينة
2	دموع القمر و قصص أخرى لمصطفى خريّف	محيي الدين خريّف
3	الصادق مازيغ - مختارات من أدبه و فكره -	محمد الهادي المطوي
4	الطاهر الخميري - دراسات في اللغة و المصطلح	حَفناوي عمايرية
5	مقامات حسين الجزيري	الحبيب بن فضيلة
6	عبد الرزّاق كرباكة - حياته و تراثه -	محمد أنور بوسنينة
7	الأديب د. فريد غازي - مقالات مختارة -	فوزي الزّمرلي
8	الصّحافي الأديب نور الدين بن محمود - حياته و مختارات من كتاباته -	الحبيب شيبوب

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

9	الشاعر أبو الحسن بن شعبان - حياته وشعره -	الحبيب بن فضيلة
10	« الرّياض النّاضرة بمقالات الحاضرة» لمحمد السّنوسي	علي العربي
11	« من أعلام الثقافة و السّياسة» للهادي العبيدي	البشير الشّريف
12	« من وحي مجلة « المباحث» التونسية في ميدان العلوم العربية	تـأليـف د. محمد سويسي
13	محمد الصّادق بسيس - دراسة و مختارات -	أبو زيان السعدِي
14	محمد بن عمر التونسي - حياته و تراثه -	رضوان الكوني
15	صالح سويسي القيرواني - حياته و مختارات من كتاباته-	أحمد بن عبد الله

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE TUNISIE

«ذاكرة وإبداع»

الكتاب [16]

محمد الصالح المهيدي

- حياته و مختارات من كتاباته -

تجميع و تقديم

محمد المي

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

دَعـــوَة

حرصت وزارة الثقافة و الشّباب و الترفيه، كما أوضَح الدكتور عبد الباقي الهرماسي في تقديمه الافتتاحي لِسلْسلَة « ذاكرة وإبداع» علـى مـواصلة «مساعيها الدّائبة للعناية بالذاكرة الثقافية التونسية، توثيقا وإحياء» من خلال تجميع و تحقيق و تقديم مجموعة من أعمال الكتاب و المبدعين التّونسيين الذين ساهموا في تجديد و تحديث الحركة الثقافية التونسية.

وحتى يتسنى للوزارة مواصلة سَعيها الدائم إلى مزيد التعريف بأعلامنا الثّقافيين في شتى المجالات، فإننا ندعو مجددا باحثينا الأجلاء إلى إثراء رصيد هذه السلسلة.

إدارة «ذاكرة و إبداع»

وزارة الثقافة و الشباب والترفيه

سلسلة « ذاكرة و إبداع »

2003

السنة الوطنية للكتاب

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

صالح سويسي القيرواني

« كان الشيخ صالح يرى أن أشرف عمل يقوم به الرجل المستنير لبلاده وأول واجب عليه نحوها هو الدعوة للإصلاح واليقظة، وأن أعظم لقب يستطيع أن يتحصل عليه الرجل المستنير هو لقب "المصلح". وقد أراد أن يكون هو أيضا مصلحا اجتماعيا في وسطه القيرواني. ألم تكن عاصمة من عواصم الإسلام الكبرى؟ ألم يكن لها تأثير في مصائر إفريقية وتحكم في مجرى التاريخ الإسلامي ؟ أليست المعالم والآثار والمعاهد التي تركها الأسلاف بالقيروان توحي إلى ضمير الرجل المستنير بشيء من المسؤولية أمام التاريخ، وتدعوه إلى أن يعمل في بني قومه على بعث اليقظة والشعور لاسترجاع العزة المفقودة وإحياء المجد الداثر، ومجاراة أمم الشرق في التطور والنهوض والأخذ بأسباب الثقافة العصرية التي تضمن لها حياة العزة والكرامة ».

محمد الحليوي : "في الأدب التونسي"

الدار التونسية للنشـر 1969– ص118

5،000 د.ت.